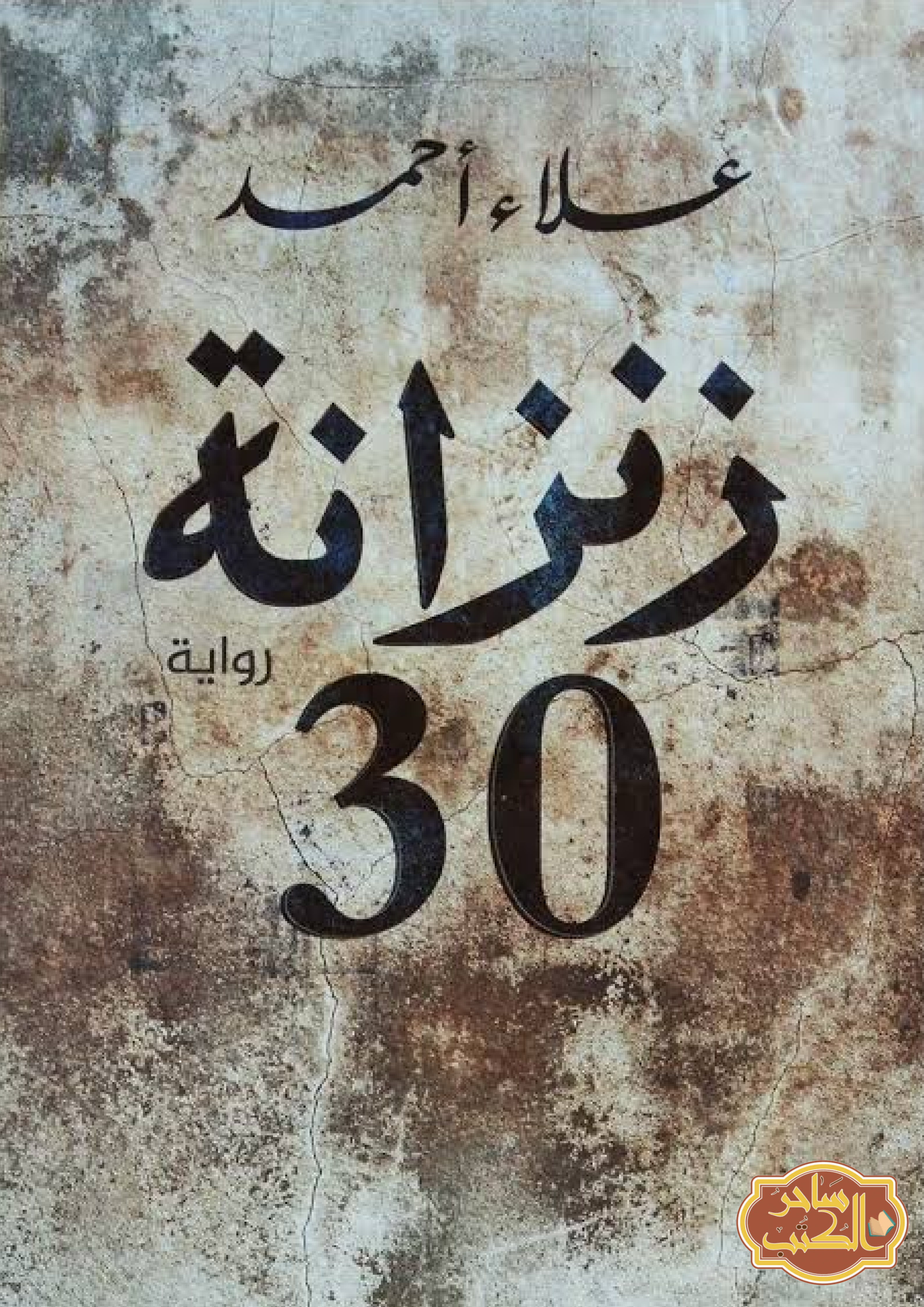

علاء أحمد
زنزانة
رواية
30
سادر الكتب



زنزانة ٣٠


ساحر الكتب





18 ش العرب من شارع 77 المعادى ـ القاهرة
Mobile: 01143679371 ـ 01224068553
Facebook: Seraj for Publishing & Distribution ـ
السـراج للنشـر والتـوزيـع
E ـ mail: seraj.books@gmail.com

زنزانة ٣٠

علاء أحمد

رقم الإيداع : 2017/

الترقيم الدولي : 978 ـ 977 ـ 6578 ـ ـ

الطبعة الأولى : 2018 م ـ 1439 هـ

الناشر: © السـراج للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة

تصميم الغلاف: كريم آدم



زنزانة ٣٠

روايـة

علاء أحمد

السراج للنشر والتوزيع





الإهداء

الإهداء إليكِ... وكيف لا أهديكِ حروفًا ما كانت لتكتب لولا دعمك
ولم يكن لها حيزًا من وقتي سوى وقتك فشاركتي بحقكِ فيَّ كي تنجز.
فكم من أوقات كنت في حضرة أحرفي من دونك،
وكم شرد ذهني معهن وأنا بجوارك.
أعلم أن الإناث يغرن من الشريك، لذلك ليس أعظم من روح تعلو على
ما جبلت عله من أجل فقط أن ترى حبيبها في ألق.
كل محبتي وتقديري وعرفاني لكِ.

«جهاد محمد سعد»



إليكم جميعًا....

«تعالوا إلى كلمة سواء»





(١)

«تبًّا لعاشق لا يعرف هوى عشيقته،
يقطع لها من جسده ومتاعها أن تراه
دومًا كاملا»



ختامًا.. أقول..

بعد خمس سنوات قضيتها في سجني، لم يخرجني سوى اتفاق بالرحيل عنها، ما أشد أن يكون المنفى وطن والغربة أمان، أو تضحي بلا أم وأنت من بني أم الدنيا، تلك التى يدَّعي الكل وصلا بها وهى لم تعلن عن ميلها قط، القاتل كان مدافعًا عنها والمقتول كان من أجلها، وآخرون يهتفون نموت نموت لحياتها، وهي صامتة تزهد أن تقول لهم أنها لا تموت، هي باقية بأرواحهم التى تسري فى شوارعها وتؤنس وحدة دروبها، هي باقية بازدحامهم في قلب ميادينها وحشودهم فى طوابيرها المختلفة، تعتمد على ذكائهم أن يفقهوا أن الموت ليس من نهاياتها ولم يكتب عليها، وأن جثثهم المهداة لها لا تسعدها، تبًّا لعاشق لا يعرف هوى عشيقته، يقطع لها من جسده ومتاعها أن تراه دومًا كاملا..

تعلمت فى خمس سنوات أن الغاية كانت واحدة بين اليمين واليسار وأن الوسيلة هى كل الاختلاف، وأن بعض الانسحاب نصر، وبعض الانتصارات هزيمة للأخلاق بداخلنا، خمس سنوات ناقصة من عمري، كل زيادتي فيها خمسة أشخاص كان ينقصني سماعهم.

هكذا كانت الفقرة الأخيرة، من مقال «فؤاد مندور» بعد انقطاع دام لخمس سنوات، وأول يوم له في مهجره...

لم يتبق شيء في الأظافر كي يقضم، راحة مرهقة ورهق بلا راحة، سهر ممل ونوم غائب، سعة فى الوقت وعمل محدود، انتظار لا أمد له ومنتظر غير معلوم، تريض بلا روضة، طعام بلا طعم..

هكذا كل أيامه الماضية والحاضرة، لا أمل له فى الأفق ينبئ بتغير فى المستقبل، كل شيء قد تغير عبر عصور قد مرَّت على هذا البلد، إلا هو.. سجين كل العصور خصم لكل الرؤساء.

لا شيء مضيء فى هذه الزنزانة المظلمة سوى شعره المشتعل بالبياض.

....

«لم يحترم شيبته التى تنذره باقتراب أجله أن يكون مواطنًا صالحًا في هذا البلد الطيب ويختم حياته بمراجعة أو تبرؤ من جرائمه السابقة فى بلده وأهله»...

هكذا تصدر هذا التعليق ببنط عريض أعلى صورته واجهة أحد الجرائد القومية الكبيرة.

....

«لم يرحموا رقة عظمه ووهن جسده وشيبة شعره وما زالوا يظلمونه ويتهمونه بالباطل»

هكذا كان منشور «نسيبة مجدي عاطف» في صفحتها على «الفيس بوك» تعليقًا على القرار الصادر في حق أبيها بالتمديد له «حتى حين» بموجب قانون الطوارئ.

....

على الرغم من حداثة ذلك السجن إلا أنه صُمِّم بطريقه تجعله يبدو مهشمًا، فأرض الزنازين غير ممهدة، بها الكثير من المنخفضات والبروزات، الحوائط جزء منها يظهر منه الطوب وجزء ملطخ ببعض الألوان العبثية المجهدة للفكر، أما السقف فيتساقط منه دومًا بعض الأتربة ومواد البناء، ويبدو حديد التسليح في أجزاء كثيرة منه مما يعرضه لرشح الماء أثناء الشتاء حيث لا سقف فوقه بالإضافة إلى تلك الظلمة إلا من نافذة صغيرة في أعلى الحائط كي لا يستطيع أحد البلوغ إليها.

على الرغم من معيشته الطويلة في السجون وهي الأكثر من معيشته خارجها فقد تجاوز الثمانين من عمره قضى أكثر من نصف عمره داخل السجون إلا أن هذا السجن هو الأشد وطأة عليه، فلا راحة له في نومةٍ ولا جلسةٍ ولا تريُّضٍ ولا طعامٍ.

مترهلة كل قسمات وجهه، متدلية شفتاه فى تمعر وغضب في وجه تلك الوحدة القاسية، يتوسد الصبر، ويتصبر بالنوم، لا صوت يؤنسه سوى زفرات أنفاسه وبعض من تمتمات نفسه تقول فى خفوت «وماذا بعد».

ما زاد الأمر معاناة تلك الجُمل التي كتبت على أحد جوانب هذه الزنزانة لا يعرف مصدرها لكن غالب ظنِّه أنها من رجال السجن لتكون نوعًا من العقاب الدائم والتوبيخ المستمر، خاصة وأنَّ عمر هذا السجن حديث ولم يسكن هذه الزنزانة قبله أحد.

كلمات تطارده كل يوم عندما يتململ من جانبه الذي عليه فيولي شطره عليها فتثيره وتستشيطه، فيدور عنها سريعًا لا يجعل لها مجالا للتفكير في ذاته، حيث إن مجرد قبول التفكير فيها يعتبره نوعًا من الخضوع والوهن يخشى أن يسلم نفسه له في يوم من الأيام وهي تصرخ فيه بنقوشها الغليظة المتعرجة...



«لن يتذكرك أحد ولن تكون رمزًا للبطولة ولا أيقونة النضال، الحياة من غيرك سارية لم تنقصها شيء، أنت من ينقصك حريتك، السجن ليس فعلا يصنع تغيرًا ولا عملا للبشرية عظيمًا، السجن ملفظ للبعض عن الحياة، ومن لفظته الحياة ليس بالضرورة له الآخرة، وذلك هو الخسران المبين».

أحيانًا يصيح فيها بصوته الذى اعتلاه أتربة الصمت «لن أنكسر لن أتراجع» كلماتكم هذه تحت أقدامي» يظل كذلك حتى يوهنه الصياح ويتعبه.

❋ ❋ ❋



«حزب الكادحين»

في حجرة الاجتماعات المعتقة داخل هذه المقر القديم والرئيسي لحزب الكادحين.

على الأضواء الباهتة بفعل الأتربة المترسبة على المصابيح القديمة المعلَّقة بالسقف العالي لهذا المبنى القديم للحزب.

حول طاولة الاجتماعات المستطيلة جلس أعضاء حزب «الكادحين» يحيطهم على حوائط تلك الحجرة لوحات مرسومة لرؤساء الحزب منذ نشأته وكبار رجاله المناضلين والمكافحين من أجل الكادحين، حجرة كباقي المقر عاكسة لحالة الحزب العتيق ومبادئه، تبدو البساطة في كل أركانه، وأحيانًا الإهمال الذي يعكس حال بعض أفراده تجاه مبادئ وثوابت هذا الحزب.

بدأت الجلسة سريعًا فور اجتماع أعضاء الهيئة العليا، في طقوس غير معتادة على ذلك الحزب وجلساته، فكان الحضور الكبير للإعلام والقنوات الفضائية لتغطية الحدث.

لم يكن حضورهم لمجرد اجتماع لأعضاء الهيئة العليا للحزب، فقد اجتمعت تلك الهيئة لمئات المرات من قبل دون أن يعلم بشأن اجتماعهم

أحد، ودون أن يُعلِموا هم أيضًا أحدًا، ولكن هذه المرة الأمر جلل، وسبب الانعقاد أمر هام يدعو لكل تلك الضجة والترقب من الجميع.

فاليوم الانعقاد بشأن فصل أمين عام سياسات الحزب السياسي المعروف والمُنظِّر المشهور «فؤاد مندور».

بدأ الجلسة رئيس الحزب قائلا:

ـ كل الشكر للحضور الكرام.

دون مقدمات روتينية أو سرد للأمور قد قُتلت بحثًا بين أعضاء الهيئة العليا للحزب وقبل إعلان القرار الخاص بالعضو الأستاذ «فؤاد مندور» نقول: ـ

إننا في حزب الكادحين أكبر وأهم حيثياتنا لأي قرار هي مصلحة المواطن ـ التي هي اهتمام الحزب الأكبر، وبالضرورة المصلحة الكبرى للبلد والوطن التي من دونها لن يكون مواطنًا من الأساس.

في هذه الأثناء علا هتاف بعض الحضور.. «*أن يحيا الوطن يحيا الوطن*».

وعملًا بالديمقراطية التي ننادي بها دومًا بما لا يخل بمبادئ ومواثيق الحزب نترك المجال للأستاذ/ فؤاد مندور، ولا أقول الفرصة الأخيرة للتراجع أو محاولة الدفاع عما ننسبه إليه من مواقفه المعادية لحالة استقرار الوطن وسلامة المواطن، لعل له رأيًا أو تبريرًا آخر قد يغير مسار اعتماد القرار الصادر من الهيئة التأديبية للحزب أثناء التحقيق معه.

فليتفضل الأستاذ» فؤاد مندور»:

ـ تحياتي لكل الأصدقاء ورفقاء الكفاح في هذا الحزب العريق، في البداية

لست متَّهمًا كي أدافع عن نفسي ولست على خطأ كي أتراجع عنه إنني وأنا في هذا الموقف أؤكد على كل آرائي بل أدعوكم أن تدركوا اللحظة جميعًا وتنقذوا العروة الأخيرة من مبادئ الحزب التي أصبحت على المحك وأن تقفوا موقفي لا أن تطالبوني بالعدول عنه.

بلهجة متحفزة وصوت حاد قاطعه العضو «كرم ناجي» الجالس أمامه من الجانب الآخر.

ـ تطالب أن نبيع الوطن مثلك ونقف في صف واحد مع المجرمين ممن قتلوا أبناءنا من الشرطة والجيش، أين حمرة الوجه يا رجل؟!

بتماسك وكظم للغيظ.. رد «فؤاد»:

لن أدخل معك في تراشق ولن أرميك بهذه التهم المعلبة التي طالما رفضتها من السلطة والتي طالما اكتوينا بنارها، لكن الكل يعلم من هو فؤاد مندور، نضالي ومبدئي معروف للجميع والكل يعرف مدى التباين بيني وبين من تتهموني بالوقوف معهم، لم يحاربهم أحد غيري بكل قوة وقت قوتهم وسلطتهم في وقت كان الكثير يتملق لهم حتى من أعضاء حزبنا المبجل.

للأسف حتى في أوساط النخبة والمثقفين لا يعرفون الفرق بين الاختلاف في الرأي والدفاع عن حقوق هذا المختلف معي في الرأي.

الاختلاف الفكري ليس معناه أن أوافق على سلب كل حقوقهم أو أرضى لهم بالاعتقال والسجن العشوائي حتى وإن كانوا مجرمين، أريد أن يواجهوا محاكمات عادلة ليست بإجراءات استثنائية، لا أريد حبسًا احتياطيًّا دون تهمة، ولا يقنعنى أمر أن ذلك لخطورتهم على البلاد، أريد بقدر الجريمة

أن يكون العقاب، أنا لا أرفض أن يحاكم أي مجرم على إجرامه، لكن أرفض التعدي في الحكم وأرفض التعميم، أرفض المحاكمات الاستثنائية حتى مع خصمي السياسي أواجهه بالرأي والفكر لا أن أستعدي عليه الدولة.

في هذا الوقت كانت مقاطعة رئيس الحزب..

ـ لكننا وقت حرب ووقت الحرب قد نضحي ببعض الرفاهية الفكرية وبعض الحقوق حتى تسترد الدولة عافيتها ولابد بضرب بيد من حديد على كل المخربين.

ـ يا سيدي أريد أن تكون هذه الضربة من حديد بيد القضاء على من ثبت تورطه فقط، محاربة البلد للإرهاب ليس معناه أن تقوم الدولة بنفس الإرهاب، إقامة العدل لن تحدث بظلم لابد أن نتحول من كره الشخص ذاته لكره فعله فقط، نعاقبه على الفعل وحده ولا نقتل أو نستبيح إنسانيته.

في هذا الوقت أتت مداخلة أخرى من عضو آخر.

ـ استغرب كيف بالأستاذ (فؤاد) يأتي بعد هذا العمر الطويل من الكفاح ويكون في خندق واحد مع أكثر الفصائل المعادية لمشروع الحزب وللوطن أجمع.

ـ معاداتي لهم لن تجعلني أتغاضى عن حق لهم، لابد أن نكون فرسانًا في معركتنا، هاجمتهم وحاربتهم في أوج سلطانهم ولم أخش أحدًا، الآن أعلن أيضًا رفضي لمنهجهم، لكنني أدافع عن حقوق لهم كمواطنين لو استثنيناهم منها ستدور علينا الدائرة في الغد إن قبلنا بهذا، ما نوافق عليه اليوم لا يصح أن نرفضه غدًا، في حقيقة الأمر أنا أدافع عنا جميعًا.

اخترق صوت من الخلف من أحد الحضور.

ـ الوقت وقت مصر، وقت البلد، وقت الوطن، إن وقعت لن نكون جميعًا، لن تكون حقوق، لن تكون أحزاب في هذا الوقت، لا تسألوا عن حقوق مجرمين، اسألوا عن حق الوطن.

يحيا الوطن، يحيا الوطن، يحيا الوطن.

ارتجَّت القاعة بهذا الهتاف وعلت الأصوات وتداخلت، حتى أخذ رئيس الحزب بالميكروفون ليعلن عن قرار حزب الكادحين بفصل العضو (فؤاد مندور) لتهتز القاعة مرة أخرى بالهتاف الحار يتخلله بعض الاتهامات والشتائم (لفؤاد مندور).

* * *



في تمام الحادية عشرة...

على غير موعد صلاة اجتمعوا متسللين خُفية في مسجدهم الذي طالما أتوه على أعين الناس، بل كانوا يجهرون الظهور أمام أبوابه وفي داخله وأركانه، لم يكونوا عمّاره فحسب، بل كانوا عامليه ومقيمي الشعائر فيه:

لم يتوقع أشدهم تشاؤمًا للغيب أن يكون اجتماعهم فيه بعد ذلك تسلُّلا، بل ويكون ولوجهم إليه عن طريق باب خلفي يدخلهم أولًا على مخزن الحصير وأشياء المسجد التالفة، ذلك الباب الذي يطل على أرض فضاء ومقلب للقمامة يبعد عن تلك الأرض.

اجتمع عشرتهم في مصلى النساء حيث لا نوافذ فيه تظهرهم أو يتسرب منها ضوؤهم الخافت الذي تجمعوا حوله متحلقين كعادتهم في الشكل، لكن ثمة اختلافات كبيرة بداخلهم فلم تعد القلوب ساكنة مطمئنة في هذا المكان، والأنفس هادئة مستقرة، إنما تدور أعينهم من حولهم، أجسادهم كأنَّ على رؤوسها الطير لا تتحرك، يكاد فرط خفوت أصواتهم والمكان من حولهم أن يُسمع طرق قلوبهم الوجلة.

تلك الحالة الحرجة لا تسمح بكثير من نقاش أو تبادل الآراء، فقط يسمعون ما يتلى عليهم من مسؤول جلستهم بشأن آخر مستجدات الأحداث والأخبار.

ما إن اكتمل نصابهم حتى أشار «أنس مجدي» إلى «معاذ حسن» أن يفتتح ببعض آيات القرآن بصوته العذب الرخيم..

انسابت الآيات بطلاقة من لسانه السليم حتى بلغ قوله «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار»....

أخذها يعيدها لمرات بقلب خاشع تصدقه العبرات.

فكانت تلك الآيات مسحة الطمأنينة على قلوبهم والتهدئة لاضطراب نفوسهم.

ما إن انتهى (معاذ) حتى استلم (أنس) دفة الجلسة، وبصوت هادئ مطمئن حدثهم: ـ

ـ لا أبالغ إن قلت لكم إن هلكت عصبتنا هذه ستهدم الكثير من عُرى ذلك الدين الحنيف ـ واجب الوقت الآن الحفاظ على عددنا، فالواحد منا يحمل على عاتقه هم منطقة بأثرها وكلنا نحمل هم أهم محافظة في بلدنا عاصمتها.

فبعد أن تم القبض على رجال الصف الأول للجماعة صعدتم أيها الشباب لتحملوا الراية من بعدهم كما حملها من قبل رجال في أعماركم في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ـ وأسامة بن زيد وغيرهم.

فقه الواقع يقول إن واجب المرحلة الحفاظ على أنفسنا، القليل منا أصبح في الخارج والسجون ممتلئة ليس فقط برجالنا بل وللأسف الشديد ببعض أخواتنا الصابرات.

لهذا الشأن كان اجتماعنا اليوم ـ كلفني الإخوة أن أبلغكم بأهم المستجدات والإجراءات الوقائية لنا.

أهم المستجدات: قد تم بالأمس اعتقال مجموعة كبيرة من إخوة الصف الأول للجماعة بطرق غريبة تؤكد أننا مخترقون بشكل أو بآخر، فإياكم والهاتف المحمول، كل كلامكم عليه يكون برموز، ويفضل أن نغير رموزنا السابقة، فبعضها نظن أنها قد عُرِفَت.

الأمر الثاني: وهو الأهم مطلوب تغيير محل السكن في موعد أقصاه أسبوع من الآن بأي شكل من الأشكال شقق إيجار حديث أو الإقامة عند أحد الأقارب في موعد أقصاه أسبوع أسبوع....

ـ أخي أنس عذرًا للمقاطعة ـ ولماذا أسبوع بالتحديد.

ـ العجلة هي الأولوية والأسبوع كحد أقصى.

لماذا أسبوع.. أولًا المجموعة التي تم القبض عليها كلها من الصف الأول وهم فقط ما يعرفونكم وهم أهل جلد ولا نظن أنهم سيدلون بأية معلومات عنكم بسهولة، والأكثر ظنًّا أنهم لن يدلوا ولكن مع أصعب الظروف نقول أسبوع، ذلك لأن كل الأمور معروفة يبيتون يومًا على الأقل في القسم إلى النيابة وقد تستمر تحقيقات النيابة لأكثر من ذلك ثم العرض على الأمن الوطني بعدها بأيام وهي مرحلة استنطاقهم بكافة الطرق عن بعض المعلومات، كل من قبض عليه رجال أولو عزم وجلد وتعرضوا لذلك من قبل، لكننا نتحدث في أصعب الأمور إن أدلوا لن يكون مداهمات لكم قبل الموعد حتى تتم كل الإجراءات المعروفة.

في هذه الأثناء قاطعه أحد الإخوة مرة أخرى.

ـ لكن أخي أنس الإدلاء بمعلومات تحت أي ظرف يتوقع فقط من شبابنا الصغير أو حتى منا لكن كيف بقيادي تحت أي تهديد أو تعذيب يقول، هذا أمر لا أحب سماعه منك، نعم نأخذ الحذر ولكن ليس من أجل أننا نخاف ضعف قادتنا ولكن من أجل المخبرين وأعوانهم الذين يتحسسون أمرنا.

ـ أخي «علي» أقدر ثقتك في قادتك وقادتنا، لكنَّ الأمر لا يحتمل أي مثالية، والأعداد الكبيرة التي يتم اعتقالها تؤكد أن هناك أمرًا يتبعوه في التحقيق فوق الاحتمال، لا نأمن على من معهم ضعف أو وهن طبيعة النفس أن تئن، من في أيديهم من الإخوة لا حرج عليهم نحن لا نعلم ماذا يفعل بهم، الأمر عندنا الآن، لا تحملوا إخوانكم أكثر من طاقاتهم، هناك ابتزاز وتعذيب لا يتخيله بشر، ثم إنَّ الله أباح في تلك الأمور الجهر بالكفر والقلب مطمئن بالإيمان في هذه الفتن الصعبة، ولا أرى أي أمر أكبر من الكفر بالدين ـ فلا تجلدوا ظهور إخوانكم إن كفروا أمامهم بالجماعة ليخففوا عن ظهورهم أو عن عائلاتهم وزوجاتهم.. وأضع تحت زوجاتهم ألف خط.

وأنا مثلكم سآخذ بتلك الحيطة بل الأمر لدي أصعب فأنا الوحيد منكم متزوج ولدي طفل والحمل ثقيل.

هناك اقتراح آخر للتخفيف عنكم وهو اجتماع كل ثلاثة منكم في شقة ولا تعرف كل مجموعة منكم مسكن المجموعة الأخرى.

(هنا قاطعه علي مرة أخرى)

ـ حتى نحن سنخوّن أنفسنا يا أنس...

ـ ليس تخوينًا بل هو رفع حمل وحرج حيث لا معلومة نعرفها حتى نقولها لهم في حال لا قدر الله قُبض على أحدنا.

فليكن فقط وسيلة الاتصال بيننا تلك الخطوط الاحتياطية التي نتواصل بها، وأشدد أيضًا على تغيير أسمائنا فيها بأسماء وهمية.. الآن نختم ونسأل الله أن يحفظنا جميعًا وعلى تواصل إن جدَّ جديد.

ـ أنس ـ قبل الختام إلى متى سنستقبل منهم الضربات ونكون كالخراف نذبح ونصفَّى في بيوتنا أو نعتقل أو حتى تنتهك حرمة نسائنا، هؤلاء لن يردعهم سوى القوى، غير ذلك لن يرقبوا فينا إلا ولا ذمة.

ـ عمر ـ صعوبة موقفنا أن من يعادينا من بني بلدتنا، الإخوة في حماس عدوهم صهيوني مستعمر، أما نحن فالأمر مضطرب، وسبق أن اختلف الإخوة الكبار على الجانب الشرعي في ذلك الأمر ورد العدوان على من تورط في عدوان علينا، لكنَّ الأمر لم يحسم، ومن قرر تنفيذ ذلك تعدَّى وأصبح والظالم سواء، أرى أن الأمر صعب الاحتمال، لكن الحلول المتاحة أصعب ولابدَّ أن نحكم العقل ولا نستعدي فصيلا من الشعب علينا.

* * *



«اجتماع هيئة الدفاع»

في قاعة مستديرة عملاقة ذات بهو راقٍ ووقار وهيبة ملكية معلق على كل جزء من حوائطها المستديرة بورتريه لأحد شهداء الشرطة والجيش الذين قضوا نحبهم في الهجوم الأخير على كمينهم، على أعلى كل لوحة من الجانب الأيسر شريط أسود.

تحيطك الصور الخمسون من جميع الاتجاهات كلها بوجوه باسمة رغم ما أصابها.

لا أدري، هل تعمد راسمها أن تكون تلك نظراتهم بكل هذه الحميمية والتودد في هذا المكان الرسمي لتشعر أنك بين أقاربك..أصدقائك.. أهل منطقتك وإن كانوا لا يتحدثون لكن نظراتهم قطعًا تلقي إليك السلام والحفاوة.

أم إن صورهم الحديثة التي أخذها ذلك الفنان من ذويهم كانت كلها بتلك النظرة قد تعاهدوا دون لقاء بينهم أن يكون ذلك سمتهم في صورة الوداع، بل لاستقبال الأهل في هذا اليوم المشهود.

في تلك القاعة منتصف تلك المنصة الكبيرة يعلو نسرٌ كشعارٍ لذلك

القطاع، يبدو بملامح حادة ونظرة تدعو إلى الحزم والانتقام، وكأنَّ المراد عند نهاية طوافك على صورة أولئك الباسمين أن تقف إجلالًا عند هذا النسر الذي ينبئك دون حديث أنَّ دمَ أولئك الأبطال أصبح اليوم في رقبتك أنت يا من تتواجد في هذا الوقت في تلك القاعة.

اليوم هو اجتماع الهيئة الوطنية للدفاع، والتي تضم كبار رجال الجيش والشرطة والضباط المنوط بهم مواجهة الإرهاب في ذلك الوقت العصيب على البلاد.

الكل في صمت تدور أعينهم على أيقونات أصحابهم الراحلين حتى صعد اللواء «طارق أبو الفضل» ليقطع بصوته الحازم الرخيم ذلك الصمت المطبق عليهم.. فهتف بقوة.

«في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء إن يعد لوطننا مجده أو ترق منا الدماء.

فإذا بهذه القاعة الشامخة الثابتة تضعف فتهتز أركانها من ترديد ذلك الهتاف بحناجر مغلولة لما حدث لأصحابهم.

توقف الهتاف الذي ظل مستمرًّا رغم سكوت اللواء عن الصدح به توقف عندما أمسك اللواء (رضا شوقي) بالميكروفون لتبدأ فعاليات الجلسة.

وكان أول ما قدمه هو تلاوة من بعض آيات القرآن تحث على الشهادة بصوت الملازم أول (نادر أحمد) بعدها أمسك مرة أخرى اللواء (رضا) بالميكروفون قائلًا:

ـ أيها الشجعان القادة والضباط وشهداء المستقبل وحماة الوطن أهلًا بكم في قاعة شهداء هيئة الدفاع، نجتمع اليوم وقد فارقنا بعض الأجساد

الطاهرة التي صدقت ما عاهدت اللـه عليه، وقد كانوا بيننا في آخر اجتماع، إن كانت الأجساد قد فارقتنا لكن الأرواح تحيطنا وصورهم التي تعاهدكم على المواصلة تحتضنكم.

أقول لكم الأمر جد خطير، وكل فرد منا هدف لهم، لا أريد أن نواجههم فقط من أجل أنكم مستهدفون لا ـ لا تبحثوا عن حياتكم بل ابحثوا عن حياة بلادكم وأهلها ـ الموت أصبح أقرب إلينا من أهلنا ومن أنفسنا ومن حظوظها،أصبح أقرب إليكم من الترقيات والمكافآت، لوحة الشرف الوحيدة المتاحة الآن هي لوحة شرف الشهداء.

ولأن الأمر جد خطير كان هذا الاجتماع سيكون فيه من الشفافية الكبيرة ستتحدثون إلينا عما يدور في صدوركم وسنحدثكم عن أي التباس، ومعنا بعد قليل فضيلة الداعية (عمر عبد الحق) ليحدثكم عن رأي الدين وتحدثوه عما في نفوسكم دون قلق أو تحفظ، فالأمر شهادة قد تكون قريبة، وفقد الأرواح لا يكون إلا في خير، كما سيكون معنا أيضًا قداسة الأنبا يوحنا نتحدث معه أيضًا، وبعد ذلك سيحدثنا باقي القادة عن التشكيلات الجديدة لنا من سيكون في حملات المداهمة في المحافظات ومن سيكون في المطاردات ومن في التحقيقات، فأمر تلك العمليات الإرهابية من مطاردة وقبض وتحقيق موكل إلينا وكل فرد على حسب الجهة الأمنية التي أتى منها فأنتم صفوة الأجهزة الأمنية.

أمن عام ـ ووطني ـ وأمن مركزي ـ ومباحث عامة ـ ومخابرات.

كل ذلك سيكون بعد هذا الفيديو الذي سيكون أكبر حججكم في المواجهة.

انتهى كلام اللواء ـ تهيأت القاعة لعرض الفيديو فأظلمت بالكامل إلا تلك الإضاءة الخاصة على صور الشهداء.

والإضاءة القوية تحت ذلك النسر الغاضب المنبعثة عن جهاز البروجيكتور لعرض الفيديو.

بدأ العرض استرق الفيديو الأبصار وأشعل في الصدور الحمية ـ تمر دقائق الفيديو ويعلو مع كل دقيقة ضغط الدم في أجساد المشاهدين والغضب والاشتعال الداخلي حتى زأر أحد الضباط كتنفيث عن نفسه وأصحابه.

(لن نتركهم يا شهيد ـ لن نتركهم يا شهيد)

علا بذلك الهتاف تلك القاعة التي كانت هادئة من هول الموقف، ولم لا؟ فمن يستطيع أن يرى مشهدًا لرفيق وحدته وعمله وكفاحه يذبح بدم بارد في مشهد معد باحترافية وصورة فائقة الجودة تبدو فيها الملامح بكل وضوح ـ ذلك الفيديو الذي انتشر على صفحة أولئك الإرهابيين منذ أيام وتداولها كل نشطاء المواقع الاجتماعية...

ظلت القاعة تهتز بزئير الأسود.

حتى اختلط الهتاف، كل ضابط يهتف بما يريح قلبه حتى بُحَّت الأصوات، زاد البركان نشاطًا واشتياطًا.

في هذه الأثناء أمر اللواء بإيقاف الفيديو لتهدأ النفوس قليلًا واستكمالا لليوم.

الآن موعدنا مع فضيلة الشيخ فليتفضل: ـ

السلام عليكم ورحمة الله، أيها الأبطال الأشاوس وفقكم الله لما فيه

خير للعباد والبلاد، وكم شرفت بأن أكون معكم في هذا الموقف العظيم وقبل أن أتلقى رسائلكم، لي كلمة بسيطة أتمنى أن تسمعوها بتدبر أقول لكم أنكم وأنتم في عملكم هذا لا تحفظون فقط أمن البلاد والعباد وإنما تحفظون علينا ديننا، نعم الأمر كذلك، فهؤلاء الذين تحاربوهم على اختلاف أفكارهم من إخوان وجهاديين ودواعش إن تمكنوا منا لا قدَّر الله سيتبدل ديننا الحنيف بما يعتقدون من متشدد ووهابية متطرفة بعيدة عن شريعة الله السمحة.

أقول لكم أيضًا بل أنتم صمام الأمان لأصحاب الديانات الأخرى في بلدنا الحبيب حيث ظهورهم علينا لا قدر الله لن يكون بعده اختلاف وتنوع بين الأديان، فأنتم لا تحافظوا فقط على الأرواح والممتلكات والبلاد بل على دين الأمة هنا.

والآن حتى لا أطيل عليكم أتمنى أن أستقبل أسئلتكم في الأوراق التي وزعت عليكم لرفع الحرج عن السائل أن يكون بذاته.

ـ السؤال الأول من أحد الأبطال يقول فيه «البعض يتهمنا بالقوة المفرطة مع هؤلاء المعتدين ونحن نلاقي منهم الكثير من الغدر والتنكيل.

ـ أقول لأخي السائل لا عليك بهؤلاء المزايدين لكل مقام مقال، سيدنا أبو بكر كان يعرف عنه اللين والسلم وعندما تولى أمر المسلمين هو من قام بحرب المرتدين، بل قال: والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه للنبي لقاتلتهم عليه، أنتم الآن في موقف إتقانه أن تكونوا أشداء على هؤلاء الفئة الباغية، رحماء على باقي الشعب، أنتم في وظيفة الجلد والقوة فيها من سماتكم، فلابد أن تضربوا بيد من حديد، فهذا هو الدين عندنا كما هو تهجد وبكاء في الليل فهو سيف ونار في الحرب.

ـ السؤال الثاني يسأل أحدكم أحيانًا يتطلب الأمر القبض على كل من يُشتبه فيه حتى نتمكن من الجناة الحقيقيين فمن الممكن أن نقع في ظلم أحد الناس دون علم.

ـ أقول سمعت من أيام في بلد أوربي عريق معقلا للديمقراطية يقول رئيس وزرائها لا تسألوني عن حقوق الإنسان وبلدنا يستهدف، المقصد هنا أن الأمر عند الشعب، عليه أن يبتعد عن الشبهات حتى لا يُأخذوا من ضمن المشتبه فيهم، وحتى من كان معهم وحاد عن طريق الخطأ لابد أن يسلم نفسه ويتبرأ منهم، وعلى الإعلام حث المواطنين على ذلك، فمن وقع منهم بين أيديكم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه، الأمر جد خطير، حياة الملايين من البشر لابد ونحن نحافظ عليها أن يقع خطأ على أفراد، ومقارنة بالملايين فهذا عدد زهيد، ومع ذلك عليكم بالتأكد، وعلى الشعب اتقاء الشبهات والبعد والتبرؤ منهم، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها طالما صدقت نياتكم.

ـ سؤال آخر.. يسأل أن من يقاتلوننا يدَّعون أنهم يحافظون على الدين والشريعة.

ـ أقول وبكل وضوح أي دين هذا، قال جمهور العلماء أن الخروج على الحاكم وإن كان فاسقًا لا يجوز، أقول وإن كان فاسقًا لا يجوز لما فيه من خراب وتدمير وقتل، والمحافظة على روح الإنسان وعرضه وماله هي أهم مقاصد الدين، ما بالكم ولم يقل أحد من علمائنا بفسق حاكمنا ولا ولاة أمورنا.

أنتم الدين الآن، وأنتم حراسه، اضربوهم أين ثقفتموهم ولا تأخذكم بهم رأفة.



انتهى كلام الشيخ ـ توالت باقي أعمال الجلسة حتى العمل النهائي الاجتماع النوعي لكل فئة على حدة لمعرفة آخر الخطط لكل مجموعة من المجموعات.



* قطاع سجن العقاب *

قام اللواء (مبروك عيسوي) بالتجمع مع ضباطه في هذا القطاع ليملي عليهم آخر المستجدات: ـ

قد علمتم من قبل بأننا استلمنا السجن الجديد من مصلحة السجون واسمه سجن العقاب شديد الحراسة وقد نقلنا فيه بعض الإرهابيين على رأسهم (مجدي عاطف).

فبعضكم قد نقل إليه والبعض سيأتي بعد تلك الجلسة، وهو السجن الوحيد الذي لن يخضع لقطاع السجون سيكون خاضعًا لنا فقط، ولن يكون فيه جنائيون إلا ما سنستخدمه في خطتنا، السجن يحتوي على ثلاثين زنزانة.

خطتنا فيه التي وضعتها من خبرتي في قطاع السجون أن الزنزانة الواحدة تحتوي على أصحاب الأيدلوجيات المختلفة، فقد لوحظ أن اجتماع بعض أصحاب الأيدلوجيات المتفقة يجعل بينهم رفاهية الحوار والنقاش، ويكون مكان أمن لجلساتهم السرية تحت أعيننا، بل وأحيانًا يخططون ضد الدولة، لذلك سنجعلهم من أقصى اليمين والشمال والوسط وسنجعل عليهم نبطشيًّا لكل زنزانة من الجنائيين، وعلى قدر تعاونه معنا ستكون له الراحة، وتكون مهمة وطنية نضعها في ملفه تساعده على أن نختاره فى قوائم العفو

فى الأعياد والمناسبات، داخل الزنزانة سيكون هذا الجنائي هو النبطشي المسئول عن نومهم واختيار من يستحق منهم التريُّض، الأمر الذي سيشعرهم بالصِّغَر، ونضمن أيضًا معرفة أخبارهم من ذلك الجنائي، بالإضافة إلى أنهم لن يجتمعوا على أمر لاختلاف توجهاتهم، لا يسمح في هذا السجن إلا بأمتعة السجن فقط، ممنوع أي شيء من الخارج، ممنوعة الأقلام، ممنوعة الكتب والصحف، حتى الأدوية تحت أمرنا والزيارات إن تمت ستكون من خلف زجاج، والحديث في التليفون لضمان سماع ما يقال بين النزلاء وذويهم حتى لا يتمكنوا من تسريب أي خطة للخارج.

لن يكون السجن كما السابق نزهةً سياسيَّةً وترفًا فكريًّا، سيكون بحق عقابًا.

لن نشارك فى عقابٍ لهم، وحده ظرف السجن والزنزانة سيعاقبهم ويقتص منهم دون أن تلوث أيدينا بهم، وفي النهاية هذا أقل مايستحقون، لكننا محاطون بحزمة من القوانين واللوائح، تجبرنا على معاملة معينة مع أولئك المجرمين فى حق وطنهم.



(اجتماع قطاع المداهمات والقبض على المطلوبين)

رأس هذا الاجتماع (اللواء علاء بكري) رئيس هذا القطاع قائلًا: ـ

ـ في الأيام القادمة أمامنا جملة مداهمات كبيرة للغاية تحت عنوان خطة «رجل بعشرة» ـ بمعنى أن المقبوض عليه بأي شكل من الأشكال لابد أن يخبر عن عشرة من أتباعه ليخفف عنه طرق التحقيق، وسيكون معكم هذا الفرد ليدل على أصحابه وهذا هو جهدكم الكبير والهدف الخاص بكم، سيكون مع كل ضابط منكم حملة مكونة من جنود جيش وضابط مباحث من القسم التابع له ذلك المجرم وبعض جنود العمليات الخاصة ستكون كل الحملة ملثمة، فكلنا مطلوبون، وأيضًا فى الوجوه الملثمة ذعر وخوف، كل واحد منكم سيكلف بأخذ رؤوس الجماعة، وكما قلنا نجاح كل فرد منكم أن يطبق نظرية الفرد بعشرة، لن يقبل بأقل من ذلك، وسأتابع الأمر بنفسي مع كل اسم ستأخذونه اليوم هناك فقط استثناءات لبعض المطلوبين من خارج الجماعة، وهم مطلوبون لذواتهم فقط.

كل الطرق والأساليب متروكة لكم لتحقيق ذلك الهدف الذي عليه سيتم معرفة مدى درجة عمل كل ضابط في هذه المهمة الوطنية الكبيرة.

....

حول، حطبهم المشتعل في أروانة قديمة للخرسانة، يجتمعون بغرض التدفئة، يختلط دخان تلك المدفئة البلدي بدخان كيفهم الذي نضج واستوى فى ثنايات الفحم المشتعل، اجتمع «كعبورة بكباكة، وحمو بصلة، وعيد النوبي، اجتماع كان أمام عشة «كعبورة» تلك العشة الخشبية، فيها مبيته وعدة مغسلة الجراج الخاص به. اجتمع بأصدقاء الشقاء والمهنة أيضًا، فلكل واحد منهم جراج يديره ويتقوت ويتبلطج منه.

فعل الكيف فعلته معهم، فى ثقل أدمغتهم، وباتت مهيئة للاستماع إلى «كعبورة» عن سبب التجمع، والذي بدأ قائلا:

ـ اليوم استدعاني «أسامة» بك، رئيس مباحث القسم، وبلغنى بعض الأمور، أمرنى أن أبلغها إياكم.

«كباكة»

ـ خير يارب

«كعبورة»

ـ ولا لن يفرق كثيرًا، المهم، أمرني أن أرصد أى مظاهرة أو تجمع للجماعة إياهم، بل وأخبرني بالتعامل مع أى مظاهرة لهم، ولابد أن نقوم بتسليم أحدهم عقب أى مظاهرة.

«النوبي»

ـ وما دخلنا نحن بكل هذا، صراع سلطتهم لن يفيدنا، ليس لنا مصلحة هنا أو هناك، حتى لو تقاتلوا لن يفيدنا شيء، ليس لنا سوى كيفنا، والجراج، لقد تاب الله علينا من الخطأ.

«كعبورة»..

ـ لا طبعًا، هذا دخلنا، «أسامة بك» سوف يؤذينا، ويحملنا نتيجة كل مظاهرة ستمر، وملفاتنا كثيرة عندهم.

«حمو بصلة»

ـ سيكون عملنا مع الداخلية، أمر عجيب، بعد كل هذا العداء بيننا نكون معاونين شرطة.

«كباكة»

ـ على الأقل سيرفعون عينهم عنَّا قليلا.

«كعبورة»

ـ فعلا.. أصحاب المسيرات، لن يأتينا من ورائهم سوى كل شر، أما الداخلية معرفتها مصلحة.

«النوبي»

ـ هؤلاء الجماعة يخشون على حريمهم جدًا، وهذا سيكون وسيلتنا، التعدي عليهم حتى لا يعودوا، ونريح أنفسنا من هذا القرف والحكومة.

«كباكة»..

ـ لا لا، الحريم لا، سندخل في أمور لسنا طرفًا فيها.

«كعبورة»

ـ من يقدر على شيء يفعله، هم أيضا لم يحترموا حرماتهم وينزلون بهم فى المسيرات وهى معرضة للضرب.

ما يهمني الآن أن نرضي الداخلية، حتى نبعدهم عنا..

* * *

(٢)

«اذكرني عند ربك كي يثبتني بآية أو
رؤية تطمئنني عليك»





قليل ما يجتمع ذلك العالم الافتراضي الأزرق مع العالم الواقعي ذي الألوان الباهتة، لكنه اجتمع على هذه الفاجعة الكبرى، الكل اقشعر بدنه من هذا الفيديو المؤلم الموجع، الكل طُعن من تلك المشاهد المروعة، فما حال الأم والأب والزوجة والابن والأقارب لهؤلاء الضباط الذين ذبحوا بدم بارد، حتى إنَّ بصر عدسة مصور احترافي تتلذذ بإخراجه على هذا الشكل المؤذي لكل ذي قلب ينبض في عالم السرعة.. الموت يظهر في فيديو عالي الجودة والإخراج لشاب في مقتبل العمر تمر السكين على رقبته بتمهل تجز في عروقه وتتعمق. خمسون شابًّا بتلك الكيفية المقيتة ثم يرفعون رؤوسهم أمام الكاميرا ثم تلقى على الأرض وتعتليه أقدامهم، لا عجب أن يفجع الكل لها كل العجب إن لم يحدث ذلك.

من بين كل التفاعلات والمنشورات كان منشورها الأكثر ألما ووجعًا وحسرة.

«فقدت القدرة على التسامح مع كل البشر، رغم التزامي أنا ناقمة على كل ملتح لا أستطيع التفرقة بينهم، سنها النبي كي لا نتشبه بغيرنا، ولا أقول لكم كل من يتركها يذكرني بهم ويتشبه بهم، قتلت لأخلى كل الرحمة تجاههم، انهارت كل المبادئ أمامي وكل الحقوق والواجبات، مشهد قتل حبيبي قتلني من الداخل، رأيته يذبح أمام عيني وبيني وبينه شاشة

لا أستطيع تجاوزها كي أنقذه أو أكون بجواره، كل حركة للسكين شعرت بها على عنقي، رأس كنت أقبل جبينها ركلت بأقدامكم، رأس كانت تتوسد حجري اعتليتم عليها، ذبحتم زوجي بسكين بارد تأخذ الآن من جسدي وجسد بنته التي شاهدته، أصبحت غير قابلة للحياة وغير صالحة للعيش».

كانت تنتظره رحمة صغيرته كي يأتي بهدية عيد ميلادها، لم ترحموا تلك الرحمة وأرسلتم إليها برأس حبيبنا ومهجتنا ووطننا ودنيانا، قتلتم صوت البيت ورائحته ونوره، الموت ظلمة، فما بالكم بالموت ذبحًا أمام الأعين، تلك ظلمات بعضها فوق بعض، لم أعد أرى وأسمع أو أنتظر، كنت فقط أنتظره لا أحتاج بعده، كان هو كل الاحتياج، أنا أموت كل ثانية كل لحظة، أنا كفرت بالوطن وبالإنسان والوجود، لا أريد سوى التشفي والحرق لكل من شارك وفعل ورضي، لا أريد سوى انتقام أشد، لا أريد التعازي، لا أريد منكم أن تدنسوا جلال جسمانه بتصريحات كاذبة ولا تنظير وقح، القانون لم يعد له مجال إن أردتم مواساتنا، فالحرق لهم أمام أعيننا، لا تقتلونا أكثر بتقاضٍ بعيد، ولا يتفوه كلب بحقوق الإنسان مع هؤلاء الحيوانات الناطقة، كل معاملة آدمية تجاههم تفريط في حق من حقوقنا وتجعلنا ننقم عليكم أنتم أيضًا، رسالتي الأخيرة ليست لكم بل هي له إلى حبيبي.. اذكرني عند ربك كي يثبتني بآية أو رؤية تطمئنني عليك.

* * *

ساكنة كل الحركات غائبة كل الأصوات إلا من صوت الرياح وهي تعبث بأوراق الشوارع والأشجار وتتخبط في نوافذ المنازل.

متوشحة الأرض والسماء بالسواد.

كلاب ضالة تستبيح الشوارع والميادين تنبش في مقالب القمامة، جرذان قد خرجت من جحورها بعدما استأمنت على أرواحها من حماقة البشر.

سكنت الطيور أعشاشها والأبدان على فراشها من بعد نهار منهك معاش.

«أنس» يمثل دوره بالليل، أوما ينبغي أن يكون في ذلك الوقت على فراشه بجوار زوجته وطفله ذي العام الأول، مستلقي الجسد، لكن عينيه وقلبه لا يستلقيان يترقبان في كل ليلة أمرًا يتوقع حدوثه.

يتكلف أن يظهر على طمأنينة وهدوء حتى تنام زوجته وابنه.

يترقب الفاجعة حتى لا يُفجع بها وحتى يمتص صدمتها عن أهل بيته.

تأخذه سنة من نوم لكنه نوم حذر ينقطع مع أقل حركه أو إحساس كاذب، كل يوم يمر عليه دون أن يأتي ما يترقبه يزداد قلقلًا على الرغم من تغير محل سكنه إلا أنه لا يستريح لذلك، هناك أمر بداخله غير مطمئن ربما لقرب محل السكن الجديد من القديم أو لبعض الشواهد التي تعرض لها من السؤال عليه من بعض الناس المجهولين وغيرها..

لا يختلف حاله عن تلك العصفور التي تسكن شجرة جوار منزله تتصنع السكون ليلًا على أحد جذوع الشجرة جوار المئات من أقرانها لكنها تترقب وتتوجس من ذلك المشهد الذي رأته كثيرًا مع قرناء لها عندما يشق عتمة الليل وأوراق الشجرة شعاع من نور ينبعث من مصباح كاشف من صياد ينتظر الليل وهدوءه ليفجعهم بطلقة عشوائية على جميع العصافير لتُسقط الطلقة إحداهن.

في ذلك الليل الطويل على المتأهبين والهاربين والمنتظرين..

أتى ذلك الصياد لتستريح العصفورة من قلقها، فأحيانًا مجيء ما نخشاه أخف علينا من قلق انتظاره...

استسلمت أعضاء «أنس» للنوم وخضع فكره لبعض الاسترخاء.

خاصة عندما استدار صغيره لحضنه وباغته بقبلة أمان عندما تفتحت عيناه لثوان على عين والده الشاخص إلى وجهه.

أخذته غفوة النوم لراحة خالية من أي فكر أو قلق لوقت طويل لم ينم مثله منذ وقت..

إذا بطرقات قوية للباب متتالية ثم محاولة لكسره بركلات أقوى فقد انتفض جسده وارتجف قلبه على إثرها، لثوان لا يدري أهو شيء من الكوابيس المزعجة أما أنها الحقيقة التي كان يترقبها.. تسمر لثوان على فراشه حتى تيقن أنه على أرض الواقع والركلات تزداد ـ الأم وصغيرها ينهضان بفزع شديد.

يهرول «أنس» على الباب رغم فزعه لكنه يستعجل أن يفتح لهم قبل أن يكسروه فيجدهم عنده بأقنعتهم السوداء وأسلحتهم ـ فتكون الصدمة والرهبة أكبر في نفس زوجته وطفله.

ما إن فتح لهم حتى انقضوا إليه من يمسك بيده ومن يحيط برقبته ومن يقبض على ملابسه والبقية الأخرى قد توغلوا بداخل المنزل يبحثون في كل الأدراج.. يبعثرون كل الأوراق يدخلون هنا وهناك تحتضن الأم برضيعها الذي يصرخ من فجعته وهي تختفي خلف باب حجرتها ترجو ألا يدخل عليها أحد حتى تستتر بملابسها..

ارتدت ما يستر جسدها وخرجت نحو زوجها المحاط بالجنود المقنعة تحمل طفلها على صدرها يفزعها الموقف ويؤلمها مشهد زوجها وهي لا تستطيع حيلة سوى الصراخ بدعاء على الجنود وضباطهم ومن يعاونهم...

تذكرت رغم هولها ما تعاهدت عليه مع زوجها ألا تدعهم يأخذوه إن حدث هذا الأمر دون أن يستيقظ كل الناس بدعائها ويفزعون كما فزعت هي وزوجها، وأن تلقي في قلوب هؤلاء الضباط والجنود الرجفة بدعائها عليهم واستعصامها بالله تعالى...

جمعت كل قواها وأخذت تدعو عليهم أن يروا ما يفزعهم في أهليهم وذريتهم حتى استيقظت كل العمارة على وقع صوتها ودعائها... ليذهب عن الليل هدوءه ونومه وسكونه فيتنحى طوعًا تاركًا مكانه لصباح جديد دون أنس في بيته ودون عصفورة من تلك الشجرة.. ليذهب الناس إلى أعمالهم ببعض ذكرى من ليلة مفجعة، ذكرى ستتلاشى تفاصيلها مع أول احتكاك بالحياة والعمل ودنياهم، وليذهب العصافير باحثين عن رزقهم فى سماء الله ليعودوا ليلا إلى شجرتهم مستسلمين لقضاء الله.

* * *



ما زال صوتها يقرع فى أذنه، يأخذه أحيانًا ممن يتحدث معه، على الرغم من أن مهنته تحتم عليه ألا يضعف إزاء تلك التوسلات، وألا يتعاطف أمام التبريرات، فهو ليس بجهة تحقيق أو إصدار أحكام إنما عليه فقط إحضار المطلوبين، أصبح صوتها ودعاؤها عليه وعلى أسرته يؤرق مضجعه وقيامه بل أصبح وسواسه القهري، قد تسللت إليه بعض الريبة ماذا لو كان أولئك المقبوض عليهم من المظلومين ولم يتورطوا فى أى أعمال إرهابية..؟ يرد على ضميره هذا بعض من صوت العقل المنزوع منه المشاعر «هذا أمر القضاء أن يبرئهم أو أن يدينهم، أنا لم أحكم عليهم، يرد ضميره..» إن تعرضوا لظلم فى الحكم عليهم سأكون أنا من أعوان الظالمين... أسئلة ما زالت ترهقه يتمنى أن لو كان مثل زملاء عمله، مطمئن لما يفعل مرتاح ضميره، لعل نشأته هى سبب بأسه، اعتاد أن يخلص فى عمله وإخلاصه يحتاج إلى اقتناع بجدوى عمله وعدم شبهته بأية شبهة، لا يجوز له الاعتذار عن عمله والنقل لقطاع آخر، ذلك أنه تم اختياره ضمن أحد الضباط المهرة من قطاعه السابق، القطاع الذي كان أخف وطأة بعيدًا عن الشك والريبة وشبهات الظلم... تغالبه وساوسه تارة ويغلبها تارة بمسكنات الضمير غير ممتدة المفعول أو المبررات المادية التى يحويها هاتفه من ذلك المقطع المدمي لزملائه الشهداء، أو مقطع الشيخ يوم مجلس الدفاع الوطني..

مخاوفه معيبة فى وسط عمله، ومجرد طرحها قد يعرضه لبعض الشك



والمزايدة أحيانًا، عليه أن يظهر كل الغلظة ويتنصل من كل مواطن شعوره، يظن من وقت لآخر أن المشكلة فى شخصيته الضعيفة التى تلين لبعض حيل المجرمين، مما يضطره للغلظة المفرطة لينتصر على الأقل على نفسه فى عين نفسه، أو ليرفع عنه شعورًا بالتقصير أو الضعف يخشى أن يظهر عليه أو يتوهم أنه ظاهر عليه، قد تيقن أن الشعور أحيانًا نقمة، والإحساس أرق، والضمير شريك معاكس، ومحاولة الاطمئنان لكل شيء هي القلق ذاته.

* * *





(٣)

«أنا مسؤول فقط عما قلته وأقصده،
وليس عن فهمهم الخطأ له»





«مثلي مثلك»..

في حقيقة الأمر لا أجد غضاضة من ذلك الشعار ولا ممن رفعوه بل وأتضامن معهم فيه، نعم كذلك.

ففي دولة القانون التي ننادي بها يحاسب المواطن فقط على جرائمه في حق الوطن كانت أو مواطن آخر ولا تتدخل الدولة في فرض أية ممارسات أو منعها أو اعتبار ممارسات بعينها محظورة طالما لا يتعدى ذلك الفرد بممارسته تلك على وطنه أو حرية مواطن آخر.

إذن الحد الفاصل لنحكم على أي ممارسة أو فعل هي سلامة الوطن والمواطن، فالدولة تحكم فقط في إطار الأمور المدنية التي نص عليها القانون، أما شق الحرام أو الحلال فهذا نابع من اعتقاد الشخص والديانة التابع لها، والمؤسسات الدينية عليها التوضيح والإرشاد وليس عليها أن تجبر أحدًا أو تحمله على أمر ما.

فهؤلاء المثليون في دولة القانون بالفعل مثلنا في الحقوق والواجبات طالما لم يتعدوا حدود الدستور والقانون.

فكما نطالب بالاعتراف والدمج بأصحاب الديانات الأخرى غير الثلاثة

السماوية، وكما نطالب بقبول الآخر أيًّا ما كان اعتقاده، من هذا المنطلق لابد علينا أن نقبل رغبات هؤلاء الشباب ولا نخلط الأمور فنمنعهم حقًّا وطنيًّا بسبب ميول شخصي أو غرائزي هم وحدهم المستفيدون أو الخاسرون منه.

أقول لكل من علق المشانق لهؤلاء الشباب وكل من طالب بنفيهم أو سجنهم أو سحب جنسيتهم.

أقول.. هناك من هم أحق بمجابهتنا من هؤلاء، هم أصحاب الجرائم ضد هذا الشعب أحق بالسجن والنفي أصحاب المواد المسرطنة.

ومن أجرموا في حق هذا الشعب وأهدروا كرامته أحق بمحاربتنا لهم، فالمثليون ـ ليسوا سبب كوارثنا ـ ولا تزيلنا في قائمة دول العالم من حيث التعليم والصحة وليسوا سبب فيرس c ولا سبب الجهل والغلاء والبلطجة.

لا أدري إلى متى نختلق أعداء وهميين ونترك العدو الأكبر لنا ـ كل فاسد في هذا البلد ـ وإلى متى نختلق معارك وهمية تلهينا عن معركتنا الكبرى وهي ديمقراطية هذا البلد.

«فؤاد طه مندور»

هكذا كان مقال فؤاد مندور في جريدة حزب الكادحين والذي أثار جدلًا واسعًا بين أوساط القراء وعلى مواقع التواصل الاجتماعي.

ـ (فؤاد) لأول مرة أختلف معك ليس في المضمون ولكن في التوقيت، لا أختلف معك في رؤيتك وموقفك من المثليين لكني أرى أنها معركة ليست في وقتها على الإطلاق.

المقال سيحفز الناس ضدك أكثر في وقت يضيق عليك الخناق، لقد وقعت في أكثر المفاهيم التي تعلمتها منك فقد كنت تقول دائمًا (الصواب وحده لايجعلك تنتصر في معركتك مع كل خطأ لابد أن تكون العقول والقلوب مهيئة لذلك الصواب حتى تلفظ معك الخطأ).

أليس هذا قولك؟... أين العقول والقلوب التي معك؟ بل أين العقول التي ستستوعب ما تقول؟ أنت صدمت الناس فيما يعتقدون وفي عاداتهم وتقاليدهم.

شخص إليها بصره بنظرة حادة...

ـ لم أكن مستعدًّا لسماع هذا منك ـ كنت أنتظر دعمًا عهدته منك، أليس هم أيضًا من صدمناهم بأفكارنا من قبل.

نعم لابد من اختيار الوقت الأمثل للمعركة وإن كان معي الصواب، لكن تلك ليست معركة، ما قلته هو أنا، مبادئ أفكاري.. وأنا لا أستطيع التخلي عن نفسي مهما كانت الموجة عاتية، لم أتخل عن مبادئي طيلة عشرين عامًا، أعمل في العمل العام منذ انضمامي لحزب الكادحين وأنا في الخامسة والعشرين من عمري أترضين لي التراجع الآن يا «مارينا»؟

ـ زواجنا رغم عراقيله فهو أقل صدمة للمجتمع يا «فؤاد» رغم اختلاف ديننا لكنه في النهاية بين ذكر وأنثى، أما الأمر الآخر صدمته أشد على المجتمع، زواجنا باركه كل المثقفين والمتحررين، مشكلتنا كانت فقط مع أسرتك المسلمة وأسرتي المسيحية، الأمر الآن مختلف، فحتى المثقفون الذين يؤمنون بالحرية المطلقة وحرية الرغبة والاعتقاد يأتون عند أمر المثلية ولا يتحدثون خوفًا من أن يصدموا بذلك مجتمعًا لا يعرف الآراء المركبة،

لا يعرف أنك فقط تدافع عن حقوقهم في الوجود على رغبتهم وإن كنت لا تحب تلك الممارسة، أرأيت كيف وجهت إليك تهم بالإرهاب لكونك طالبت ببعض حقوق الموقوفين منهم؟ والآن يتم الترويج على أنك شاذ جنسيًّا لمقالك الأخير.

الكل مشحون ضدك، الأرض ممهدة لاعتقالك، وأنت تتماهى مع ذلك وكأنك تعطيهم المسوغات حتى وإن لم تتحرك السلطة لذلك.

فهناك المتبرعون بهذا لها، كم من القضايا التي حُرِّكت ضدك عند النائب العام، وأمر الاعتقال أصبح قريبًا.

كنت أودُّ فقط التأني لا التخلي، كنت أودك فقط قارئًا للمشهد بشكل أدق.

يصعب علي وأنا أرى كل تاريخك يُمحى وقد كنت ممجَّدًا بالأمس القريب.

ببعض الأسى والخضوع رد قائلًا...

ـ أرجوك يا مارينا الوقت وقت دعم ـ والمشكلة الأكبر ليست مني، أنا طول الوقت متسق مع مبادئي ومع ما أعتقد ـ لقد قلتِ الحقيقة كانوا يمجدونني من أشهر فاتت ـ لكنه كان تمجيدًا سطحيًّا ـ فقط لأنني وافقت هواهم وإن كان هواهم هو الحق آنذاك، والآن يصبون عليَّ اللعنات مثل الطوفان، لا ينبغي أن نخاف من هجومهم ولا نسعد بمدحهم، مثل هؤلاء لا يمجدون المبادئ والأفكار يمجدون فقط ما يوافق معتقدهم أو ما يرضيهم.

خسارة أولئك مكسب.

عندما كنت أحارب بقلمي كل متطرف، وعندما باركت القبض على العناصر الإرهابية وكنت أدعم الشرطة فى ذلك وكان هذا رأيي دون مداهنة صفَّق الجميع، والآن وأنا أقول رأيي في أمر آخر الكل يصبُّ عليَّ الاتهامات.

ـ أرجوك أنت يا فؤاد الوقت ليس وقت استئسادٍ غير محسوب، كيف يكون خسارة أغلب الشعب مكسب؛ حيث إن الأغلبيه الآن تعارضك، نعم الأغلبية دائمًا تساق بالعواطف ليس بالأفكار، لكن من الحكمة أيضًا بل والانتصار هو معرفة حتمية الصمت ووقت التراجع خطوة للخلف.

ـ أتريدين لي الرجوع عن مقالتي؟

ـ لا أريد فقط توضيحًا منك وإزالة اللبس.

ـ لا يا مارينا ـ سأقول فقط ما أعتقد وليس ما يحبون سماعه، أنا مسؤول فقط عما قلته وأقصده وليس عن فهمهم الخطأ له.

المبدأ هو الحد الأخير لوجودنا، وورقة التوت الوحيدة التي تستر عوراتنا، لا أحب التفريط فيها حتى لا أصبح باقي العمر منهزمًا أمام نفسي، هذا الوقت هو المحك الحقيقي لصدق مبادئنا.

ـ فؤاد ـ لن أقف أمامك ولن أفتَّ في عضدك مرة أخرى طالما عزمت فأنا معك.

* * *



ازدادت حالة تردده عن السابق، خاصة بعدما قام بعمليته الأخيرة هذه الليلة بالقبض على «فؤاد مندور» المفكر والكاتب الذي طالما حرص على قراءة عموده، بعد هذه العملية لم تجد مسكنات التبرير المعتادة التى كان يتعاطاها من مشهد زملائه الشهداء، أو فيديو الشيخ، ذلك أنه «فؤاد» بالطبع ليس متورطًا فى دماء أولئك الشهداء، بل كان يجابههم فى كتاباته، صحيح أنه كان يرفض بعض كتاباته، خاصة أمر «المثلية» الأخير، لكنه في النهاية رأي، عبر عنه بكلمات وليست رصاصات، لا يستطيع أن يلوى عنق مفاهيمه أكثر من ذلك، فنشأته الثقافية وحبه للأدب والفنون، كرَّست عنده بعض المفاهيم التى ما زالت تدبُّ في روحه رغم حياته الشرطية الوعرة والفظة، ازداد الأمر عنده حتى أنه أخذ يربط بين كل حادث له من وعكة صحية أو ضرر لأولاده على أنه ربما ذلك الجزاء الذي هو من جنس العمل، لكنه يعود أدراجًا ويقول أي عمل، فقد استشهد الكثير من زملائه الأبرار الذي يشهد لهم بالخلق والتفاني فى العمل، حدثته زوجته لما رأته منه من تعكر دائم فى مزاجه واضطراب نفسه.

ـ هشام ما بك دائمًا في ضيق واضطراب؟

ـ بالفعل يا زوجتي.. مللت عملي، أن أكون كل يوم زائر ليل لأحدهم أفجع فيه بنيه وزوجته، وأتلقى وابلا من الأدعية فى العلن وكثيرًا من اللعنات سرًّا.

ـ أنت ضمن ضباط النخبة، تقوم بعمل عظيم لبلدك ولنفسك أنت مصدر شرفنا، أنت لا تظلمهم على العكس تقبض على رؤوس الظلم والإرهاب فى البلاد، مثل دعاء أولئك مردود عليهم، ثم إنهم من أفجعونا فى أقاربنا وأصدقائنا هل نسيتهم؟ لا أحب أن أسمع ذلك منك، والدك ضابط بل وصل لرتبة لواء، ووالدى أيضًا لن آتي بأمثلة بعيدة، هل رأيت منهم أى ظلم أو أى شيء يخالفون فيه ضمائرهم؟

ـ لا يا زوجتى، بل والدي شهد له القاصي والداني، ووالدك أيضا، وأغلب من تعاملت معهم من أصدقائي، لكن مثلا، هل «فؤاد مندور» مثلا يمثل إرهابًا للدولة أو حتى تورَّط في القتل؟ هذا مثال يجعلنى أحيانًا تختلط عليَّ الأمور، لن أقول لكِ حتى بعض من أقبض عليهم من المنتمين للتيارات الأخرى، أحيانًا تحدثني نفسي هل بالتأكيد هم متورطون، قانون الطوارئ يجعلنا نأخذ بالشبهات أكثر.

ـ ليس بالضرورة أن يكون «فؤاد مندور» قاتلا مباشرًا، لكن ألم تر مقالاته الأخيرة التى يفتُّ فيها فى عضدكم، بل ويتَّهم بعضكم بالقوة المفرطة، في وقت حرب ووقت يقع منكم الكثير شهيدًا، كلكم على قائمة أولئك المجرمين، نحن نفجع عليك منهم مئات المرات إذا تأخرت أو غابت أخبارك لوقت كثير، لستُ من يشرح لك حالة الطوارئ، أنتم تتقون بها شر قادم، ثم إنه لم يعلن إلا بأفعالهم، فى الأيام الأخيرة مات المئات من الشعب، حتى من هم في صوامعهم لم يسلموا، مسيحيون عزل فى كنائسهم، ومسلمون فى مساجدهم، علاوة على استهدافهم لكم جميعًا، الأمر عظيم والمرض عضال يستلزم عملية قلب مفتوح قد يدمى فيها الجسد، قد نشعر ببعض الوجع جراء عملية استئصال الألم الدائم، فما يحدث للبعض حتى ممن

يقبض عليهم كإجراء احترازي حتى، أو تضيق بعض الحريات كل ذلك بعض الألم جراء استئصال الألم الأكبر والدائم بل هذا السرطان الخبيث.

ـ لا غبار على كلماتك يا زوجتى الحبيبة وأقدر كل ذلك وهو ما أستعيد به نفسي، المشكلة على ما يبدو ليست فى عملي أو حتى مبرراته، المشكلة فى شخصي أنا، أحيانا أشعر أنه ليس مكاني، حتى وإن كان ما أقبض عليهم جناة، فأنا لست لذلك، أنا أحب أن أمسك بقلم وأعبر، لا أمسك بتلابيب رجل، أحب أن أسمع للأغاني القديمة والألحان العتيقة، لا أصوات الثكالى وإن كانوا محتالين، لي أفكار قديمة وقت قراءتي تخالف فلسفة تنص عليها بعض القوانين، لا أقول بخطأ تلك القوانين أو ظلمها، لكن وسيلتها غير وسيلتي، أؤمن أن مهما زادت حالة الصراع فى البلاد أو الإرهاب، لا ينبغي أن نتغاضى عن بعض تضييق الحريات، أؤمن أن محاربة التعدي لن تكون بالتعدي، أنا فى حيرة دائمًا مابين عمل أريد أن أخلص له ووطن أحمل فى عنقي أمنه وبين أفكار لا تريد أن تسلم لواقعي الجديد، كرجل أمن يمكنه أن ينزع بعضًا من عاطفته أحيانًا، كل عمله بين الوجوة الكالحة والمنحرفين، لا أحب أن أطارد أو أعادي أو حتى أكون الآخذ بالثأر من أحد، تلك قدرات وسمات خاصة، ربما كنت أتحاشى أن أتحدث بذلك حتى معك لافتخارك بي كوني ضابطًا، ومن عائلة شرطية كبيرة يشار لرجالها بالبنان، لكنك زوجتي ولابد أن تعرفي كل دواخلي وإن كان الأمر مزعجًا لك، لكننى أيضًا فى رهق نفسي وانزعاج دائم.

ـ هشام.. أعتقد أن ذلك سببه ضغطتك الآنية فى العمل وتعرضك كل يوم لهذة الضغوط، أعلم سمو روحك، لكن مهنتك أيضا لا تهمل سمو الروح، لا أحب أن تحدث بذلك لأحد، أرى يا حبيبي أن تأخذ فترة



نقاهة، تبتعد فيها عن العمليات لتقل الضغوطات داخلك، أنت فى مكانة وطنية واجتماعية كبيرة نفتخر كلنا بك، ويحسدك الكل عليها، والكثير كان يتمناها، ألا تتذكر يوم اختبارك وكيف كان آلاف الشباب يتمنى، واختاروك ضمن العشرات التى وقع عليها الاختيار.

ـ نعم أتذكر وتلك مشكلة أخرى، لا يختلف الأمر عن كلية الطب التى يتمناها كل طلبة الثانوية العامة فقط لأنها من كليات الوجاهة والرقي أو كذلك صنفوها، فكثير من خريجي الطب ليسوا بأطباء رغم اجتيازهم الكلية، المشكلة أننا نريد أن ننجح فيما اعتبره الناس نجاحًا وليس فيما تميزنا به وخلقنا من أجله، صحيح أنا نجحت فى اجتياز كلية الشرطة، لكننى فشلت أن أصل إلى ما كنت أتمنى، كل ميولي كانت أدبية، لكننى كنت أقنع نفسي أننى سأكون فى قمة النجاح إذا ما اجتزت الاختبار، لذلك لأن الناس اعتبروا ذلك وجاهة، الكثير بالفعل يتمنى ما أنا عليه، دون النظر أن ميولهم بالفعل شرطية، أم لا؟ ودون النظر أنهم على مقدرة لتحمل الضغوطات والتضحيات، الكل يتمنى لكن ما تتمناه تلك الكلية لا أحد ينظر إليه، والذى لا أتخيله سوى شرطي، تركيبته، تفكيره، عقليته الأمنية، لذلك ليس عنده أي صعوبات ولا يحتاج لإرغام على شيء ولا كثير تبريرات لنفسه، قلت لك الأمر ليس فى هذة المهنة السامية، المشكلة فى تركيبتي أنا المختلفة.





(٤)

«ليس بالضرورة أن تكون ذا جسد قوى وبناء يافع كي يتحاشاك الناس، يكفيك فقط وجه عبوس وسمت قاس وسيتقيك كل الناس»



«على محمد خطاب» الشهير «أبو ذكرى الشرقاوي» السن ٣٧ عامًا، قرية الأحرار، محافظة الشرقية، مركز أبو كبير، بدأت مشاكله من الصغر عندما هرب من منزل والده بعد مشاجرة معه وهو في الحادية عشرة من عمره، تعود منذ هذا الوقت على قسوة الشارع الذي ظل به أربعة أيام هاربًا من والده، ثم قرر العودة بعدما باءت كل حيله ومحاولاته لإيجاد مكان آخر بالفشل، هذه أول محطات طفولته، والتي سيكون لها الأثر مع المحطات الأخرى في بلوغه حتى يصل إلى ذروة إجرامه.

ظل دائمًا في مشاجرات مع والده الذي تزوَّج على أمه، وبعد عنهم لفترة طويلة، ليصبح «شبارة» شيخ المنطقة، حتى بلغ العشرين من عمره لم يُعرف له عمل سوى ذلك من وقت إطلاق لحيته في مرحلة المراهقة، وارتدى الجلباب القصير، كان يداوم وقتها على الذهاب إلى المنصورة للاستماع إلى خطب الداعية الكبير هناك، ليصبح شيخ المنطقة والموزع لصدقات المسجد على الفقراء واليتامى والتي كان يأكل منها كأحد العاملين عليها حتى بدأ يتحول مساره فكان يعقد جلسات الصلح بين البلطجية ومقيم الجلسات العرفية، مما أدخله في بعض المشكلات مع البلطجية حينما قام بحرق بعض المواد المخدرة التي وجدها مع أحد الشباب فقامت على إثر هذه الوقعة معركة كبيرة استعان فيها ببعض «الإخوة المشايخ» ضد أهل المنكر لتصبح معركة دامية، ثم أصبح مطلوبًا بعد ذلك لرجال الأمن، ظل هاربًا حتى

تمكنوا من القبض عليه ليخرج بعدها بأسبوع على ذمة قضية، ثم تنشب معركة أخرى بينه وبين أهالى المنطقة بسبب مراسم عرس وصفها «شبارة» بأنها تحتوي على مخدرات ليهرب بعد ذلك لمدة طويلة، ويتضح بعد ذلك أنه سافر إلى ليبيا هربًا ليعود بعد عدة أشهر عندما يعلم بخبر القبض على شقيقته في أمن الدولة للتحقيق معها بسبب أخبار وردت عن نشاطات له وانضمامه لبعض الجماعات.

فيعود ليثبت أن كل الأمور جنائية ضده وبالفعل يخرج مرة أخرى من أمن الدولة وبعدها بشهر تصدر أحكام ضده في قضاياه الجنائية، حيث إنه قد تسبب في عاهة مستديمة لبعض الأشخاص أثناء مشاجراته فيأتي ضباط تنفيذ الأحكام للقبض عليه فيتعدى على أحدهم ويهرب ثم يتمكنوا من القبض عليه بعد ذلك، ثم يصل إلى السجن ليقضي عقوبة خمس سنوات، قضى منها بعض الأشهر، ثم قامت الثورة ليكون أحد الهاربين من السجن ويذهب بعد ذلك إلى سيناء، وينضم هناك لتنظيم بيت المقدس انتقامًا من الشرطة الفاجرة على حد وصفه لينفذ بعد ذلك عدة عمليات آخرها تلك العملية الغادرة التي راح ضحيتها خمسون من رجال الشرطة الأبطال.. هكذا سردت جريدة الأهرام القومية قصة هذا الرجل والتي قدمتها بخبر «شهداؤنا اليوم في عيد».. ثم بالبنط العريض.

اليوم بدأ القصاص ـ القبض على الإرهابي الهارب على محمد خطاب ثم عنوان جانبي:

«شرقاوي» من قرية الأحرار إلى جماعة الفجار في سطور.

* * *

لم تعد زنزانة «ثلاثين» تلك الزنزانة الانفرادية على (مجدي عاطف) فمنذ أيام قد بدأت حملات المداهمات الواسعة ليعمر كل سجن العقاب ليس فقط تلك الزنزانة ـ ذلك السجن الذي لا يكتفي، دائمًا يسأل هل من مزيد ـ الاستفادة القصوى منه هو أن يزدحم ويكتظ بالنزلاء، فالبراح في زنازنه عورة لابد أن تستر بأجساد متلاصقة.

عمرت ثلاثين برقمين آخرين كما يجب أن يطلق مسئولو السجن على النزلاء ذلك فتتلاشى كل أسمائهم ومناصبهم وشهاداتهم ليحل محل ذلك رقم يوضع على ظهورهم يتعمدون أن ينادون به دون غيره حتى يصل الأمر إلى أن ينسى النزلاء أيضًا أسماءهم التي ذابت خلف هذا الرقم، زاد رقمان على هذه الزنزانة هما ٢ و٣ بجوار رقم ١ «مجدي» فكان رقم ٢ من نصيب (أنس) ورقم (٣) من نصيب «شرقاوي» على الرغم من ذلك الرقمين.. إلا أنه لم يحدث أي جديد فكل في فلكه يسبح، وهو الحال الطبيعي لكل نزيل بأيامه الأولى بعد رحلة شاقة قد تدوم إلى أكثر من شهر بين تحقيق واستنطاق بكل الطرق والوسائل في الأمن الوطني والنيابة العامة والبيات في حجز القسم إلى أن يذهب إلى المستقر السجن، وفي هذه الحالة يكون السجن هو بعض الراحة، حيث إنه المستقر والمستودع الذي فيه سيقضي النزيل باقي وقته بعيدًا عن عما حدث له أثناء رحلة التحقيق.

وحده (مجدي عاطف) لم يمر بهذا كله لكنه على دراية بكل ذلك فلم يحاول قطع ذلك الوقت عليهم بتعارف قد لا يكون وقته، وقد لا تكون أنفسهم مستعدة له بالأخص (أنس) فهو الأقرب أن يدور بينه وبين (مجدي) حوار، أما «شرقاوي» فتحفزه وتحفظه وتجهمه تجعله متقيًا من «مجدي» وأيضًا علمه بأيديلوجيته من قبل، كل ذلك ينبئ بأنَّه لا حوار يُنتظر، على العكس قد تكون مشاحنات كما أراد لهم مسئولو السجن.

مرَّ يوم على هذه الحالة ولكل منهم ركن لا يتجاوزه إلا عند موعد الصلاة، قام (أنس) للصلاة مع (مجدي) بينما «شرقاوي» أبى إلا أن يصلي منفردًا، بعد صلاة العشاء قرر (مجدي) أن يقطع هذا الجليد من الصمت والتفت إلى أنس يسأله عن حاله وعما أتى به إلى هنا:ـ

الأمر الذي وجد استجابة سريعة من (أنس) فمجدي بالنسبة له المعلم والمنظِّر الذي طالما حلم بالاستماع له ومناقشته، لم يدر أن يكون ذلك بين جدران السجن.. حدثه قائلا:

ـ لا أدري يا أستاذي من أين أحكي كل الأمور من بعد اعتقالي أشبه بكابوس شديد للغاية.

مشاهد كلها تمر عليَّ كضربات من سياط على جسد عارٍ، هل أقص عليك ذلك المشهد المروع يوم أن قبض على وصوت زوجتي بالرجاء وولدي بالبكاء الذي لم ينقطع والذي انقطع ذكرهم عني منذ أكثر من ثلاثة أسابيع؟ أما مشاهد التعذيب التي أقلها ذلك الخندق الذي يحوي فقط جسدي واقفًا ولا أستطيع النوم فيه ولا الجلوس والذي ظللت فيه ليومين؟ أو مشهدي وأنا صاغر أمر معهم على بيوت الإخوة كي يكمل العشرة وآتي إلى هنا وأبتعد عن ذلك الجحيم؟ لم أتخيل أن أصل إلى ذلك

الضعف والوهن عندما كنت أنكس رأسي أمام إخوتي وهم ينزلون بهم من منزلهم فيروني في الأسفل من دللت عليهم، الأمر كان أشد من احتمالي، كنت أضعف من أن أتحمل.

ـ هون عليك يا ولدي أنت لم تبع إخوانك من أجل خروجك، أنت معهم، قلنا مرارًا لا تأمنوا على من في الداخل من ضعف نحن بشر.

ـ وأنا قلت لهم كذلك في آخر جلساتي معهم، وطالبتهم بعدم إبلاغ أحد من أخوانهم بمنازلهم الجديدة، لكنهم كانوا يبلغوني كوني المسئول والمفترض أنني الأعرف بالمسؤولية ـ كنت أتمنى عندما أذهب معهم إلى أحد الإخوة ألا يكون بداخل مسكنه، وبداخلي رغبة حقيرة أن يكتمل العشرة فأُرحم، أنا لن أسامح نفسي أبدًا.

ـ قلت لك هون عليك هم بجوارك ـ لا تحمل نفسك عبء الآخرين، يكفيك وجعك في نفسك وأهلك.

* * *

ليس بالضرورة أن تكون ذا جسد قوى وبناء يافع كي يتحاشاك الناس، يكفيك فقط وجه عبوس وسمت قاسٍ وسيتقيك كل الناس..

كذلك كان «شرقاوي» على الرغم من جسده النحيل، إلا أن لسمته المتحفز خشية، طويل القامة، رأسه مرفوعة دائمًا ثابتة نحو الأمام، وكانت الاستدارة شيئًا يعيبها، طويل العنق، ذو نظرات حادة، تزيد من حدتها عيناه الشاخصتان، قسمات وجهه لا تلين ولا تسترخي، جامدة، كأن الابتسامة ليست ضمن انفعالاتها، أنفه حاد ـ بروزها الأوضح بين تفاصيل وجهه الشاحب، الجمود ليس سمة ملامحه فحسب، بل كل هيئته، فقدماه كخشب مسندة، ظهره مثبت تكلفًا حتى لا ينحني ويبدو دائما شامخًا.

دخل الزنزانة مكفهرًّا، ينظر يمينًا ويسارًا وكأنه يبحث عن أمر ما، يجز بأسنانه على شفته السفلى، ينفث عن غضب بداخله، يقبض ويبسط أصابعه ويفركها على ظهر كفه بارزة منه خريطة عروقه المنتفضة بدمه الثائر، أخذ يدور فى رحى الزنزانة لا يكل، يتأفف ويتململ من وضع لم يدخله إلا من ثوان، قد ضاقت نفسه مبكرًا، متجاوزًا مرحلة جس النبض مع الصبر، فهاجمه سريعًا أنه لا طاقة له به، لكنه لا يدري أنه لا يكيد إلا نفسه فالرضا أو عدم الرضا لن يغير من واقعه شيئًا، ربما الرضا يخفف عنه بعض المعاناة.

يدور فى جنابات الزنزانة كأسد ضار، يبحث فى قفصه عن مخرج، كل



تلك الانفعالات المتأججة والنفس المتحفزة كفيلة أن تجعل من سبقوه يتلاشوا مجرد تهدئته أو محاولة احتوائه، فكل طاقة أولى بها نفوسهم المحطمة، لا سيما أن هذا الجهد قد يكون وبالا عليهم بسيل من الغضب والتوبيخ يحمله «شرقاوي» بداخله ينتظر مثيرًا حتى ينفثه في وجهه.

* * *

فتح العقاب أبوابه لاستقبال مُعاقب جديد وإيداعه في أحد الزنازين (فؤاد مندور) من بعد شهر من الاختفاء اعتبرها البعض اختفاءً قسريًّا، ها هو يظهر في سجن العقاب قد استثنوه من تشريفة الاستقبال القاسية التي استقبل بها جميع نزلاء العقاب، ربما لتذكرهم بعض مواقفه من قبل.

جاءت الأوامر سريعًا بإيداعه زنزانة ثلاثين لينضم إلى ثلاثتهم، ما إن فتحت أبواب (٣٠) وتفحص (فؤاد) تلك الوجوه الثلاثة لثوان حتى انتابته حالة من الغضب الشديد والصياح كيف يكون مع تلك الوجوه التي هاجمها كثيرًا بل وكان من من ألد أعدائها مجدي عاطف ـ شرقاوي.

أخذ ينادي بأعلى صوته على الحارس عله يسمعه فيعود، لكن هيهات فليس لهم من من أمره شيئًا ما الحارس إلا عبد عبد المأمور.

أخذ يصرخ موجِّهًا فاه للنافذة العالية: ـ

أنا صاحب فكر لست قاتلًا ولا رجعيًّا ـ لا تساوونني بمن حاربتهم طول حياتي، أنا صاحب قلم ولم أحمل السلاح يومًا في وجه من يخالفنى الرأي، أنا لست جنائيًّا، تهمتي هي الرأي في وقت أصبح الرأي تهمة، تهمتى كلمة فى وقت السكوت.

ما زال يصرخ رافضًا وضعه مع أولئك النزلاء حتى قاطعه هذا الصامت المتحفز دائما بنبرة قوية حادة قائلًا له:

ـ أنا من أرفض أن أكون معك، يهينون نضالى بأن جعلوني مع مناضل الشواذ والراقصات، أو لست كلبهم المدلل؟ لماذا أتوا بك إلى هنا؟ هل انتهت مهمتك فأصبحت مثل خيل الحكومة المتهالكة.

نظر إليه فؤاد بحنق وتحفز..

ـ اسكت أيها المجرم، فأمثالك من القتلة لا يزايدون على أصحاب الفكر.

ـ نضالك أن قتلت المئات من الأبرياء العزل...

ما زالت المناوشات الكلامية على أشدها ورميهما لبعض بالاتهامات والتوبيخ حتى قام «مجدي» للتدخل بينهما.

كفى مزايدات ومشاحنات أولئك السجان لا يفرقون بينكم كثيرًا وكلاكما في إعلامهم من أعداء الوطن.

ليس على أحد أن يقتنع بفكر الآخر ـ لكن دعونا نتعايش هنا على ما اتفقنا عليه، وأننا شركاء هذه الزنزانة إن لم نعترف أننا شركاء في الوطن ـ لابد أن نتقبل بعض ونفوت عليهم الفرصة التي وضعونا مختلفين من أجلها حتى إن لم نقبل بعضًا، يقول كل منا للآخر لكم دينكم ولي دين، وليعتزل كل منا الآخر وإن كنت أقول لكم من خبرتي الطويلة قبولنا لبعض وحده من سيخفف علينا من ثقل هذه الأيام قليلًا، أنا أيضًا لو خيرت لن أتمنى أن أكون معك يا فؤاد ولا معك يا شرقاوي، لكن الأمر مفروض علينا ولابد أن نتعامل مع ذلك فقط من أجل حسن الجوار.

رد شرقاوي في حنق.

ـ والله أنت أيضًا لا فارق كبير بينك وبينهم، كان هو مناضل الراقصين

وابن النظام ـ وأنت وجماعتك مداهنو النظام والداعون إلى ديمقراطيتهم البالية. لَكَمْ فتت كثيرًا في عضد المجاهدين بأنهم ليسوا من الإسلام، وهذا المندور ومقالاته التحفيزية ضدنا الآن أنتم في السجون بجواري من بعد أن انتهى دوركم.

رد مجدي..

ـ ما أسهل أن أرد عليك والحديث طويل وأقول بأفعالك وأفعال أمثالك التي كرهت الناس فى الإسلاميين بعنفكم، نتأذى جميعًا من أفعالكم، وجعلونا في سلة واحدة..

شرقاوي

ـ «ليتكم في سلتنا»

رد عليه..:

ـ كفى جدالا عقيمًا لن يغير من شيء، نحن أربعة لا يتابعنا أحد الآن وكل جدالنا لن يغير من قناعتنا شيء ـ لابد أن نقبل فقط بالجوار لا حل لنا سواه وليلزم كل منا مكانه فقط...



(٥)

«لا يُؤخر مجيء المُنتظر سوى انتظاره»



حالة من الهدوء تريد أن تدب في زنزانة» ثلاثين» وإن كانت نسبية، الأمر الذي يزعج لواء السجن وضباطه فهذا عكس ما أريد لهم.. وهو ما عجَّل بتطبيق الركن الأخير للخطة وهو نبطشي الزنزانة.

تلك الوظيفة أو المكانة العرفية التي عرفت في السجون أن يكون أحد كبار المساجين في الزنزانة هو النبطشي عليهم وتكون له عدة مميزات يكتسبها من هذا المنصب ـ فهو الذي يخضع له الجميع، وهو المتحدث الرسمي عن الزنزانة عند المأمور أو مع الضباط والأفراد، وهو من يحدد حقَّ كل فرد في مساحة من أرض الزنزانة للنوم، والتي تقاس بكف الأيدي المفرودة، تكون على حسب، أحيانا «شبرين وقبضتين» أقل أو أكثر فأحيانًا يجامل القريبين منه، وقد يخترق بعض قوانين السجن ولا يُعاقب وهو الذي يصالح المتشاجرين داخل السجن، وهو بصفة عامة كبير الزنزانة.

كان الاختيار «لحسن فرنسا» أن يكون نبطشي زنزانة «ثلاثين» وهو الذي سيأتي للضباط بالأخبار إن حدث أمر هام في الزنزانة.

«حسن فرنسا» الجنائي الشهير فى وسط السجن يقضي عقوبة حبس إثر إتجاره في المخدرات، ولم تكن مدته الأولى، فقد كان قبلها مددٌ أخرى مرة بالتعاطي ومرة بالإتجار ومرة التعدي على أمين شرطة لا يميزه سوى تلك السنتين الفضة في مقدمة صف أسنانه العلوي، وتلك الندبات التي

تملأ وجهه ويديه، ذلك الوجه الشقي والرأس الأصلع عند المنتصف بين كتلتين من شعر لم يُصفف قط، مثل أغلب المنحرفين لا يمتلكون جسدًا قويًّا كون اعتمادهم على الأسلحة البيضاء والنارية حديثًا، فجسده خفيف نحيل لم يقدِّم اعتذاره عمَّا يسلكه رغم تجاوزه الأربعين عامًا.

لم يكن فرنسا هو الإضافة الوحيدة في هذا اليوم، كان من الواردين معه (وائل عبد الفتاح)

ذلك الشاب الوسيم صاحب الثلاثين عامًا وحامل الجنسية الأمريكية كجنسية ثانية.

تاركًا شعره هو الآخر، لكنَّ ذلك بفعل قصة معينة وليس لبعده عن الاعتناء به، فضلًا عن إكرامه له بأفضل مستحضرات الشعر.

يترك شيئًا من شعر ذقنه الأسفل الذي يتحد مع شاربه ليكون سياجًا حول ذلك الفم، يمتلك جسدًا ذا بناءٍ رياضي متناسق وصدر عالٍ مستقبلا للحياة، لا تحمل قسمات وجهه أي شقاء أو ذبول، ناضر وجهه كقرص الشمس، رغم قوة ساعده لكنَّ كفيه لم يحملًا شقاء قط - فقط مقابض المعدات الرياضية في الجيم.

قد أخذ من مسيرة شبابية منذ وقت لحركة جديدة تطلق على نفسها أكسجين تدعو للتنفس والخروج من القبضة الأمنية وإطلاق الحريات.

أصبح الآن قائد حركة أكجسين في أصعب مكان قد تتنفس فيه الأنفس الصعداء.

أحدث فرنسا بعض الضجيج فور وصوله مع النزلاء حتى يرسل لمن في الخارج أنه يعمل على ما يرام مخافة أن يسحب منه ذلك التشريف الذي

طالما حلم به، وعندما أتى جاء القدر أن يكون نبطشيًّا على مجموعة من المثقفين والسياسيين، كانت بينه وبين «شرقاوي» بالأخص بعض المناوشات عندما دخل وعرف نفسه برئيس الزنزانة وأخذ يملي عليهم تعليماته وكيف سيكون اليوم بعد ذلك كما خططه هو وإلا سيشكو إلى الضباط المخالف حتى ينال التأديب.

كالعادة تدخل (مجدي) ليفض الأزمة محدثًا (فرنسا):

ـ إن كل شيء سيكون كما تشاء حتى يمر الموقف، على أن يكون بينهم جلسة في الليل عندما يذهب الحراس ليضعوا الأمور في نصابها.

أتى الليل...

اجتمع (مجدي) بكل الزنزانة ومن بينهم «فرنسا»ـ

ـ النبطشي يا رفاق أمر معمول به هنا، وكما قلت في السابق لابد أن نتقبل كل أمر لكن بحدود، ما أقصده أن نجعل (فرنسا) يبدو كذلك حتى لا يؤذى، لكن بحدود يا أستاذ (فرنسا)، فكل من هنا رجال علم وفكر سنترك لك أمر اختيار من سيخرج للتريُّض أو يكون بالاتفاق معنا، أمر النوم أظن أنه لن يعنيك كثيرًا، الزنزانة بالكاد تحملنا، وهي فقط مترين ونصف فى ثلاثة.

(قاطعه فرنسا)...:

ـ أين ميزتي إن أتفق معكم على من يخرج للتريض والنوم أيضًا.

رد «مجدي»..

ـ أعرف أن الجنائيين يتعاملون مع النبطشي بالسجائر كعملة، ونحن

أيضًا سنفعل ذلك لكنهم جميعًا ما زالوا جددًا لا يعرفون مواعيد زيارتهم ولا يعلم ذووهم بأنهم هنا، نتعاهد إليك بقاروصة سجائر كل زيارة.

ـ لا أريد أكثرمن ذلك ـ تبقى شيء عندما يكون الحارس سأتعامل معكم ببعض الخشونة وأحيانًا السباب لابد أن أفعل ذلك أمامه.

ـ مم ـ لكن لا تتمادى لن نقبل بأي تمادٍ.

ـ أنا لا أشتهي السباب، لقد فعلته كثيرًا، لكن ذلك من واجبات النبطشي ودواعي مهنتي.

ـ حسنًا، لكن قلت لا تتمادى أنت تحتاجنا لتظل نبطشيًّا، وأيضًا للسجائر وهي التي ستتعامل بها في الكانتين، ونحن لا نريد وجع الرأس منك.

* * *



«وسادسهم كلبهم»

قد جعل اللـه أصحاب الكهف آية على قدرته تعالى، أرى مع اختلاف الزمن أن ثمة آية أخرى قد تجمعت في زنزانة ثلاثين وإن كان أصحاب الكهف فيه آمنوا بربهم وهؤلاء القابعون في زنزانة ثلاثين لم يراعوا ربهم في بلدهم ولا شعبهم، آية اللـه قد تحققت ليس فقط في عددهم ولكن في اختلاف ميولهم ومشاربهم الفكرية، قد اجتمعوا على كراهية هذا الوطن وأهله، لنعلم جميعًا ويعلم الشعب المصري أن عداوة الوطن قد تبطن تحت شعار يساري أو يميني أو وسط، فلا نتوهم باختلافهم كثيرًا ففي النهاية يتجمعون على العداء للوطن ليكون مصيرهم واحدًا تلك الزنزانة لكنني مع ذلك التشابه أعتذر لكلب أصحاب الكهف أن وصمته بالعار أن جعلت «شرقاوي» هو سادسهم وهو كلبهم وهو ما يسيء لذلك الكلب الذي ذكر اسمه في القرآن بفعل حسن، أما ذلك فملعون فى القرآن بجرمه.

لذلك أقول وقد يتهمني البعض بالشمولية أو حتى أننى أشجع على الديكتاتورية أقول ولا أبالى بتلك الاتهامات إنني لا أؤمن باتجاه فكري سوى حب الوطن، وإن كان ثمة انتماء حزبي أن يكون حزبًا واحدًا باسم الوطن تكون أيدلوجيته الوطن فقط.

الكاتب «يحيي فوزي»

كان ذلك أبرز مقالات اليوم في أحد الجرائد القومية التي أثارت جدلا كبيرًا خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي طرح فحواها الأكثرية بشيء من السخرية.

قال أحدهم:

«حتى التعددية سيمنعونها فى البلد»

وقال آخر:

«الحزب الواحد نقسمه إلى فريقين، فريق يرأس وفريق يعارض، ويكون الأمر بالتبادل»..

* * *

كما اجتمع الفرقاء في السجن اجتمعت أزواجهن أيضًا على حال واحدة دون اتفاق بينهم أو حتى لقاء، على الرغم من تباين الثقافة والفكر، اجتمعن على لهفة اللقاء والتمني برؤية الأحبة في الغد، اجتمعن على السهر في الأيام الخاليه يفكرون في غائب لا يُعلم له مكان، اجتمعن على التحضير لرحلة الشقاء في الغد، فالكل بعيد عن هذا العقاب الذي ضربت أسواره في قلب الصحراء بعيدًا بعيدًا.

الغد أول الزيارات وأول الرؤى بعد حوالى شهرين من البحث والتردد على الأقسام واللوع والحيرة والوحدة والغياب بعد رحلة شاقة كانت على أقلهم بعدًا ٦ ساعات..

وصل الجميع في ساحة قريبة من سجن العقاب ساحة كبيرة مكشوفة وكأنها يوم الحشر لا مقاعد للراحة ولا مظلات حامية من المطر الذي بدوره لن يستحيي منهم في هذا الوقت..

أتى الجميع مبكرًا بعد التشديد عليهم أنه لن يدخل أحد من البوابة الأولى لأرض الانتظار الصحراوية بعد الساعة السادسة فجرًا، لذلك احتشد الجميع خوفًا من أن يفوتهم الموعد المنتظر.

بالفعل أغلقت البوابة الأولى في السادسة ليكونوا في أرض فضاء واسعة خلفهم أسوار عالية للبوابة الأولى وأمامهم بوابة كبيرة على بعد بعض الكيلو

مترات تُرى لهم لضخامة بنيانها لا أحد هنا ليرشد أحدًا أو يطمئنهم، فقط صوت جاء من مكبر بعد إغلاق البوابة أن يجتمع كل أهالي نزلاء زنزانة واحدة مع بعضهم البعض في طابور.

فكان اجتماع الفرقاء في نفس الصف بعد عناء شديد للوصول بعضهم لبعض، الكل يقف مستعدًا في الطابور لا يحدث من بجواره انتظارًا للتحرك، ظلَّ الأمر كذلك حتى مرَّت النصف ساعة الأولى، فتفككت الصفوف وبدأ التعارف بين المجموعات قتلًا للوقت الذي أخذ في التمدد والتراخي عليهم حتى حلَّ الوهن على أولئك الذين التقوا من أسفار مختلفة، فكان اكتشافهم أنه لا يوجد مقاعد ولا مكان للاسترخاء فبدأت الأقدام تتثاقل، وبدأ البعض يفترش رمال الصحراء كي يجلس، والبعض الآخر يمنِّي نفسه أن الأمر قد اقترب، فلا يبادر بهذه الفعلة فتتسخ ثيابه خاصة أن بعض رقع الأرض مبللة من فعل الأمطار البسيطة المتقطعة.. لكن مع انقضاء الساعة الثالثة جثا الجميع دون استثناء فقد زاد الملل والتعب وبدأت أحاديث طويلة وتعارف وثيق بين كل الأهالي لا سيما أهالي ثلاثين..

حدث ما كان يخشى، وخذلتهم السماء بمطرٍ شديد ليكتمل العقاب عقابًا، فالجلوس سيكون على أرض مبللة بشدة وفي الوقوف عذاب عظيم، البعض اختار الوحلة والبعض اختار التسمر على قدميه حتى انضموا إلى الموحلين بعد مرور ساعة أخرى.... ألم ـ ونصب ـ وتعب ـ حتى ارتمى على الأرض مغشيًّا عليه من ارتمى ومن أخذ يتوجه إلى خالقه بالشكوى والدعاء والحسبانية، يوم عصيب للغاية رسالته مفادها هذه طقوس الزيارة من منكم سيأتي مرة أخرى ـ أصبح الناس أعجاز خاوية أو بقايا مخلفات حرب منهكة في أرض القتال، لم يعد أحد يبالي بالأرض ولا الماء، الكل



مستلقٍ حتى جاء الأمر أخيرًا بالاستعداد في تمام الساعة الرابعة عصرًا ليمضوا نحو البوابة التي تبعد كثيرًا عن مكانهم ليتعرضوا لتفتيش قاس يعبث بما تبقى معهم من أمتعة قد تصلح، فمنعوهم الدخول بها وصادروها ليدخلوا بعد ذلك في زيارة من وراء زجاج لعشر دقائق يتحدثون مع ذويهم فيها عبر هاتف داخلي بينهما.

* * *

أحيانًا.. نتمنى أن لو نخترق هواتفنا ونحن نحدث حبيبًا غائبًا عنا، لنأخذه بين ضلوعنا بقوة، نحسد تلك الهواتف التى تتلمس شيئًا منه من دوننا، لكن عزاءنا، أننا نسمع صوته، رغم تلك المسافات التى ضربت بيننا.. ماذا لو كان الحبيب الغائب أمامنا دون مسافة، ولا نستطيع أن نحدثه إلا من خلال هاتف، ماذا لو شيء منا أمام أعيننا وممنوع عنا أن نتلمسه أن نضمه أن نلملم شتاتنا المتمثل فيه، أن نبكي فوق صدره، أن نشكو له الأيام، أن نروي له حالنا بعده، والأصعب على الإطلاق هو عدم استطاعتنا العودة به.

هكذا كانت تلك الزيارة، بشكلها وطرافتها الموجعة للاشتياق، والمعذبة للعوز، والحائلة بين الروح والجسد.

طوابير أخرى قد أقيمت، أمام كل كابينة من الخمس كبائن الزجاجية صف طويل من الزائرين الكل ينتظر دوره، ليدخل الكابينة، ويحدث سجينه وغائبة من السماعة الموضوعة بالداخل، وعلى الجانب الآخر السجين، يرى كل منهما الآخر، لكن محال بينهم بلوح من الزجاج، فلا تستطيع الأبدان أن تتصل ولا الأيادي أن تتشابك، وحتى الأصوات لا تصل، محاولة قام بها الجميع فور دخوله لتلك الكابينة، أن يتحدث بصوت عالٍ إلى غائبه، فالأمر لا تتقبله نفس أن تتحدث فى سماعة لمن هو أمامك، لكن



دون جدوى، الأصوات لا تصل وقد بحَّت الحناجر، الأيادي تتمسح فى الجدار الزجاجية الغليظة علها تصل، أو تخترق الحواجز، ربكة، وتخبط على الجميع، الحواس كلها تعمل، النظر إلى الحبيب، يد تضغط على السماعة لزيادة وضوح الصوت، يد أخرى تشير أو تتحسس على الزجاج، روح تريد أن تنفك من الجسد وتنفذ من الزجاج، مخبر أمام كل كابينة يراقب الموقف عن كثب، زائر من خلفك يتململ ينتظر موعده العظيم، دقائق تنفذ من تلك العشر دقائق المتاحة لكل سجين، البوح كثير، المواضيع كثيرة، أيها أهم، الشعور كبير وبعض الحديث لا يصح، فالخصوصية منتهكة من كل اتجاه، لا سيما ذلك الذي يسمع من سماعة أخرى، لكن أيضا من ذلك الذي يدخل برأسه إلى الكابينة، همهمات تتسرب من هنا وهناك، أقدام تهتز توتُّرًا وتحسُّبًا لكلمة «أن الموعد قد انتهى».

كل ذلك ألم، لكن الآلام فى مشهد الأبناء الذين يبكون يريدون أن يصلوا إلى آبائهم يريدون حضنه، يريدونه معهم، لماذا تحيل تلك الألواح بينهم، الوالد يتحدث إلى زوجته فى السماعة، والطفل يشب كي يحصل عليها من أمه أو يتحدث بصوت يختلط بالبكاء ينادي على والده، والوالد يسترق النظرات إلى زوجته التى تحدثه بالأعلى، وذلك الابن الذي ينفطر قلبه عليه من الأسفل.

زيارة عمقت الجروح وزادت المسافات، ألهبت الحنين، واعتصرت على ندبة الفراق ليمونة شديدة الحموضة.

ساعات من نصب ووصب، من أجل دقائق من رهق للنفس، وظمأ أمام ماء محرم على العطشى....

* * *

ـ ما زال الوقت مبكرًا على ذلك يا رفاق، ارفعوا رءوسكم المنكسة، أعلم أن الزيارة دائمًا ما تثير في النفوس القلقة على الأهل والذرية والشفقة المتبادلة على حال ذوينا وما لاقوه من وعثاء السفر ومشقة الانتظار من أهلنا علينا وعلى حالنا خاصة وأنها الزيارة الأولى لكم والتجربة الأولى لبعضكم في السجن.

اعلموا أن الأمر لا أجل له والوقت هنا وحدة قياسه السنون، فلا تعدوا الدقائق ولا تتعلقوا بأيام.

لا يؤخِّر مجيء المنتظر سوى انتظاره على الرغم من ذلك الباب المُحكم والنافذة الضيقة العالية وغلظة الجدران التي تخفي باطنها عن ظاهرها إلا أنه اليأس وحده من يستطيع أن ينفذ إلينا، يخترق ما عجز عنه الهواء النقي والأمل الطيب فاحذروا اليأس.

الضجر لن يمرر عليكم أيامكم، والرفض لن يغير الواقع، مثلما تقبلتم أنفسكم تقبلوا ذلك الوضع الآن، تصالحوا مع جدران السجن حتى لا تضيق عليكم أكثر.

هيا انهضوا واتركوا تلك الأركان التي زرعتم أنفسكم فيها، تعالوا نتحدث قليلًا ويبوح بعضنا إلى بعض تعالوا: ـ

كانت تلك مقدمة السجين الطاعن في السن (مجدي عاطف) على رفاقه

الذين ظلوا على تلك الحالة من بعد مجيئهم من الزيارة حتى طرقت تلك الكلمات على رؤوسهم فاجتمعوا بعدها في صحن الزنزانة.

اتفقوا على أن يكون لهم موعد في كل يوم كهذا ليتحدث كل واحد عن نفسه وأفكاره والإجابة على أسئلتهم المطروحة عليه منهم، مع الالتزام بالقواعد السابقة أن تكون بعيدة عن إجبار الآخرين برأيه أو المصادرة من المستمعين إليه.. إلخ

كان الاختيار الأول على (فؤاد مندور) ذلك أنه أكثر المرحبين للفكرة والمتحمسين لها فقد كان طوال عمره ينادي بالحوار لم يعلم أن أول ما ينفذ سيكون بين جدران السجن.

بدأ قائلًا: ـ

أنا «فؤاد مندور» ناشط سياسي وحقوقي أظن أنكم على معرفة بي كما أعرفكم، لم أتخيل يومًا أن يكون جلسائي هم من حاربت فكرهم كثيرًا على صفحات الجرائد، سمعت عنكم كثيرًا وقرأت عنكم ـ لكنها المرة الأولى التي أسمع منكم.

لن أتحفظ ولن أقول ما تحبون سماعه، فمن أجل رفضي لذلك سجنت، وإن كانت التهم تحت أسماء أخرى مثل ازدراء الأديان والوقوف ضد توجهات الدولة....إلخ.

أعتقد أنني الوحيد بينكم الذي لم يُرض عنه حتى من بني فكره وأيدلوجيته، وأعتقد أيضًا أن ذلك الصواب.

تعتبروني أنني عربيد سكير لا هم له سوى ما يمتعه، أعلم أن هذا مبلغ علمكم عندي، ويراني آخرون من العامة أنني من النخبة الفاسدة التي

أدخلت البلاد في الفوضى لمناداتي الدائمة للحرية واحترام الإنسان أيما كان.

في الحقيقة إنَّ كلا وجهتي النظر صحيحتان، أنا ذلك الرأيان بل أرى في هذا كمالى أنا متسق مع نفسي للقدر الذي لا يجعلني أخجل من أفعالى ولا أنكرها وأعتبرها جزءًا أصيلا مني طالما تحقق لذاتي شيئًا وإن كان متعة.

هنا جاءت مقاطعة «شرقاوي»

ـ يا رجل لا تنكر هذا وتعتبره كمالًا فيك تبرر حتى العربدة والسكر، أهذا هو التنوير الذي تحمله؟

نعم «شرقاوي» أعترف بذلك يكتمل الإنسان بنقصانه هذا هو اعتقادي ـ لن نكون ملائكة لأن الله لم يخلقنا كذلك ولن نصل للشيطانية، ذلك هو الإنسان السوي أمَّا غير ذلك أعتبره ذا خلل ـ أستغرب دائمًا الإنسان الذي يبدو بالملائكية وأشعر أن به نقصًا ما، فأين ملذاته وأين حاجاته ورغباته وشهواته؟ أشعر وكأنه أيضًا مجرم أجرم في حق فطرة بداخله فأصبح لا يتعاطى مع الجمال ولا الفنون والأدب لا فرق بينه عندي وبين ذلك المجرم في حق الناس سوى أن الأول أجرم في حق نفسه أولًا ثم يكون في حق الناس إن يجعلهم مثله أو يقتلهم.

هنا تدخل أنس: ـ

ـ لا لا.. توقف لابد من رد على كل هذا، أنت تدسُّ السمَّ في العسل، أولًا أتفق معك بأن الخطأ وعدم الكمال جزء من طبيعة البشر بل وأعجبني رأيك أن في ذلك كماله أن يحتوي الأمرين، لكن من قال أن الملتزم أو من يدعو للالتزام شخص ملاك أو يكبت بداخله رغبته وشهوته أو إنسان لا يتفاعل مع الجمال، الفرق بيننا في الوسيلة نحن بشر نشعر بكل ذلك لكن

نشبعه بوسيلة شرعية، فنحن كرجال لنا رغبة في النساء لا نقتلها نتزوج لنشبعها أما ما فهمته منك أن يكون الإنسان حر يشبعها بزنا بأي شكل من الأشكال، نعم نحن لسنا ملائكة لكن لابد ألا نترك نفوسنا للجزء الشيطاني فيها بدعوى أنه نقص وأن ذلك النقصان من الكمال، الملتزم ما يفرقه عن الآخر أنه يحاول مقاومة هذا الجزء وتقويمه وتهذيبه وإشباعه في إطار الشرع لكنه لا يقتله ولا ينفيه.

ـ تمام لا اختلاف معك.... لكن من قال لك أني أقصد الزنا أو أنني حتى أمارسه ما قصدته من الإنسان الذي يأخذ الملائكية ولا يتعاطى مع الجمال هو من يحرم علينا الغناء والنحت لأنها تماثيل والصور من ينكر علي مثلًا إذا تماهيت مع موسيقى أو إيقاع مبهج بالتمايل أو الرقص وأنه شيء خارج عن الدين.. إنني أعتقد أن الخروج عن الدين يتمثل في التعدي على إنسان آخر على روحه أو ممتلكاته أو حريته لا أدري ما يضير الدين في أن أرقص أو أنظر إلى جمال امرأة حسناء أو حتى أتغزل في مفاتنها؟ ما يضير الدين في متعتي وسعادتي طالما لم أتعد على غيري؟ هذا هو الدين الذي أعتنقه إنني لا أؤذي أحدًا ولا أتعدى على أحد ولا أخون أحدًا ولا أقلل من شأن أحدٍ ولا أظلم أحدًا.

ـ كان رد «شرقاوي»

أتعجب من أمرك لا تمارس الزنا كما تقول ورأيتك في أكثر من مشهد تدافع عن حقوق المثليين تأخذ ما يعجبك من الدين مثل رفض القتل والخيانة والظلم... إلخ وتأتي أكثر نواهيه وتعترف بمغازلة النساء والسكر والرقص أنت من لا أعرف.

ـ هذه هي المشكلة الكبرى محاولة تصنيف الآخر حتى تحدد موقعه من

تعاملك، هل هو ملتزم كما نفهم الالتزام أم زنديق يستحق ما يستحق، لا تشغل نفسك في تصنيفي فقط انظر إلى ما بيني وبينك هل رأيت مني ما يؤذيك؟ هل تعديت على الآخر؟ هذه هي دولة القانون التي نريدها يكون التعامل فيها بحدود القانون، دع أمر الآخرة للآخرة، وعاملني فى الدنيا بقوانينها، هب أني اخترت النار، أو جنة الدنيا بماذا ستضر أنت؟

الأمر الآخر هو ما فشلت كثيرًا في إقناع رفاق أيدلوجيتي به وهو ليس بالضرورة من أدافع عن حقهم في إبداء أو ممارسة أمر ما أكون متفقًا مع هذا الأمر أو أمارس تلك الممارسة أنا فقط أدافع عن حقه في إبداء رأيه، ذلك الموقف المركب الذي لا يستوعبه الكثير رغم أنه أبسط ما يكون، أنا مثلًا حاربتك كثيرًا على فكرك وما فعلت، لكني كتبت عن حقك في إجراء محاكمة عادلة وحق أيضًا الأستاذ مجدي رغم أنه خصم سياسي لي.

رد «مجدي»..

ـ وهذا أمر يحمد لك كثيرًا لأنك لا تفجر في الخصومة ولا يحملك اختلافك معي على ظلمي.

ـ هكذا لابد أن نكون جميعًا لذلك أقول «شرقاوي» أنت تتعامل معي برأي مسبق لذلك لا تتقبل كلامي، أدعوك فقط لتتعامل معي ومع فكري بما تراه مني الآن ـ أعترف أنني أيضًا تعاملت بذلك عندما دخلت الزنزانة ربما لصدمة الموقف الأولى، وربما لأنك ألد خصومي السياسيين بل من خصومي في الإنسانية ـ لكنني تداركت ذلك أنني فقط سأتعامل مع ما سيظهر منك تجاهي وكونك إنسانًا وما صدر منك تجاه الآخرين سيقول القضاء فيه مقولته.

ـ شاركهم «وائل عبد الفتاح» في الحوار قائلًا:

ـ وماذا عن أمورك الاجتماعية؟ دعنا قليلا من الأفكار.

ـ سنعود مرة أخرى أيضًا للأفكار إن تحدثت عن حياتي الاجتماعية، حيث إن حياتي لم تنفصل عن ذلك، فالتحرر الذي ناديت به هو ما حملني على الزواج بمسيحية رغم رفض أهلي وأهلها.

قاطعه «شرقاوي» قائلًا لم تجد مسلمة تعجبك؟

رد «فؤاد»..

ـ وهل هذا حرام على الرغم من أني لا أحب دخول مقياس الدين في تلك الأمور لكنني حدثتك بما تحب وتعرف.

ـ كيف لا تحب مقياس الدين؟ حياتنا كلها يحكمها شرع الله لماذا لا تصرح بالحقيقة كما صرحت بكل شيء؟ لماذا لا تقولها صراحة أنك ملحد، لماذا لا تكون متفقًا مع نفسك في هذا؟ ألست ملحدًا..؟

سكت فؤاد لبرهة وكأنه يبحث عن إجابة ما أو يخشى تسرع الإجابة ثم رد قائلًا....؟

اتساقي مع نفسي في ذلك يجعلني أتأنى في الإجابة، ويجعلني لا أصرح بذلك، وهذا لأنني بالفعل لا أدري، لا أخشى أن أتحدث عن شربي للمسكرات ولا حتى دفاعي عن المثليين، لكن تلك الكلمة أخشاها ولها وقع غريب على قلبي وهذا ما يجعلني أتحفظ خروجها، فمجرد خوفي منها يقول لي أن ثمة ريب بداخلي.

ثم إنني لم أصرح بها، أليس هذا أدعى بأن لا تعينني عليها، كذلك

الشاب الذي يشرب السجائر خارج منزل والده لكنه ما زال يحفظ قدره بأنه لا يجاهره بذلك ويلقي السيجارة أو يضعها خلف ظهره إن رآه مهما كبر في العمر ـ أنا كذلك مازلت أحتفظ بخيط بيني وبين الله علني أعود إن اقتنعت، لا أريد أن أقطع به كل الأوصال، فلا تجعلني في ركن تكيل اللكمات وتظل تقول أنا ملحد أنا ملحد، حتى أثبتها عنادًا لك، قل علنى مازلت أبحث عنه لم أتيقن من عدم وجوده بالكلية، ولم أجده بعد، قل ما شأت لكن لا تقل ملحدًا، وإن كانت أفعالى تقول ذلك كنت قد سمعت عن الرسول أنه إذا علم ببعض المنافقين لا يواجههم فيكسر آخر حاجز بينه وبينهم كان فقط يتعامل مع من يصدح بالكفر والنفاق.

ـ رد عليه (مجدي):

ـ هذا حقك وبالفعل الإسلام الدخول فيه بكلمة والخروج منه بكلمة مادمت تنكر على نفسك وصفك بالإلحاد نحن لا ينبغي أن نثبتها عليك مع ذلك أنا أيضًا أدافع عن حق الملحدين في إعلان إلحادهم.

ـ تدخل «شرقاوي»

أنت لا تحب أن تكمل حوارك بكلام طيب لابد أن تقحم فيه أفكارًا غريبة لا ليست فائدة من قولك الأخير، أنك لم تجده.

نظر إليه مبتسمًا..

ـ أريد أن تتقبلني بالكلية كإنسان وأفكاري لا أرغمك عليها بالكلية، لا تجعل الأفكار حائلا بين النفوس، اترك نفسك للحديث وتحرر قليلًا عن أي فكر مسبق.

تدخل «فرنسا» أخيرًا في الأمر...

ـ ما قضيتك هنا ومتى جلستك هذا الأهم؟

ـ حقيقي لا أدري أنا أتيت بموجب قانون الطوارئ ولم يكتب لي وكيل النيابة سوى (يسجن حتى حين على ذمة التحقيق)، والقضايا بعضها ازدراء أديان ـ أو مجابهة الدولة... إلخ ولم تحدد أي جلسات لي.

ـ رد «فرنسا»..

لا أفهم ما تقول رغم خبرتي أنا أعرف شبهة جنائية جنحة، تعاطي إتجار مشاجرة وأحراز... إلخ

ما أعرفه الآن أنني لا أستطيع التحمل كثيرًا ـ أتحمل نعم من أجل أفكاري الكثير لكني لا أتحمل تلك العقوبة، السجن أشد من القتل لا سيما بعدما رفضوا اليوم دخول الورق والأقلام إلينا وحتى الأدوية وبعض المتاع من بطاطين وفرش لأول مرة أخشى على نفسي ضعفًا.

مع احترامي لشخص أستاذ/ مجدي، لا أطيق مثلًا وأتخيل أن أكون منسيًّا في السجن طوال حياتي ربما عندكم المعتقدات التي تجعلكم تقبلوا هذا أو أن الآخرة هي الفوز ـ أنا أحب الحياة حتى نفيي هاهنا من أجل الحياة ومعيشة أفضل لذلك أستغرب ممن يقتل من أجل حياة أفضل لمن ستكون تلك الحياة الأفضل ـ أنا خائف من أن يطول وقتي هنا.

تدخل «مجدي»..

ـ هل من أسئلة أخرى للأستاذ فؤاد؟

سكت الجميع ثم توجه بالسؤال للأستاذ فؤاد إن كان له إضافة، فقال:

ـ لا.. من الممكن مع الأيام القادمة سأضيف لكني أريد أن أسمع



«شرقاوي» أريده دون تحفظ، أعرف قصته من الأخبار كاملة وقد كتبت عنه لكنني أريد أن أسمع منه لا عنه.

ـ رد «شرقاوي»

ـ سيكون ولكن في يوم آخر، اليوم تحدثنا كثيرًا ولا تقلق من شأن صدقي فأنا مثلك أصرح بتوجهي وتأكد أنني لا أحتاج للكذب عليكم لكنت كذبت على المحكمة فهي الأهم أنا لست مأجورًا كما يقولون أنا أتحرك عن عقيدة وفكر وصاحب العقيدة لا ينكرها أبدًا...



(٦)

«يتقاضون الملايين على مهمة إقناع الكادحين بالصبر»



ثورة عارمة وغضب شديد بين أوساط المنتسبين لهذه الرقعة الزرقاء، أشعل فتيلها إجراءات الحكومة الأخيرة لسد بعض عجز الموازنة برفع أسعار المحروقات.

نشر أحدهم على ذلك قائلًا:

في هذا البلد لن ترخص سوى الأرواح.

وقال آخر:

زاد سعر لتر السولار فأصبح لتر الدم مجانًا.

وقال آخر ردًّا على إعلامي في برنامج له يطالب المواطنين بالتحمل من أجل البلاد قليلًا، قال عن ذلك.

(يتقاضون الملايين على مهمة إقناع الكادحين بالصبر)

والبعض علق نزوله للعمل وآخر تحدث عن عرض سيارته للبيع.

ثورة ازدادت اشتعالًا في منتصف النهار عندما عاد الجميع من أعمالهم لم تتعامل معها الجهات الأمنية بأية عنف ولم يزعجها أمرها، أخذت وتيرتها في الانخفاض بعدما بدأت الساعات المتأخرة من الليل تحل على الثائرين في ميادينهم على الأرائك التي كانوا يجلسون عليها وهم يطلون من نوافذهم الافتراضية يتحدثون أو يثورون على الواقع، بُحَّت حروف أناملهم وقلة

منشوراتهم مع دخول يوم جديد إلا من بعض فلول الثوار هنا أو هناك حتى ذلك الهاشتاج صاحب الترتيب قد تراجع إلى أدنى مستوى له حتى تلاشى آخر اليوم الثاني، عاد الثوار أدراجًا يتحدثون عن مستقبل المنتخب ومباراته المهمة للوصول للحلم الذي طال انتظاره والوصول لكأس العالم.

أما أهل الواقع قد رضوا بواقعهم بعد مناوشات قليلة كانت في الصباح مع سائقي الأجرة والتاكسي، ومع اشتعال موجة الثورة فى منتصف اليوم على مواقع التواصل الاجتماعي كان الشارع أكثر هدوءًا واتفاقًا على التعريفة الجديدة للأجرة بالإضافة إلى بعض كبار السن الذين كالوا الاتهامات والسباب للذين ما زالوا على الثورة في مواقعهم الافتراضية التي لا يراها ولا يدخلها أولئك الكبار.

في ردهات هذا الموقع الأزرق أيضًا كانت مارينا تتحدث في منشور لها عما لاقته في زيارة زوجها وزيلت منشورها بهاشتاج # لا_للقتل_البطيء.

مُنع النزلاء ومن بينهم زوجي عن أدنى حقوقهم اليوم منع دخول الدواء والفرش في هذا البرد القارس.

على مثل هذا العنوان كتبت أيضًا «نسيبة»

منعوا عن أبي الكهل أدوية السكر بدعوى أنها ليست من طبيب السجن حسبي الله لا للقتل البطيء.

* * *

برق يكاد يخطف الأبصار من قوته، الكل في منزله تدور عليه تلك اللقطات الضوئية الشديدة اللحظية..

صوت الرعد يرجف القلوب والبيوت استفاق لزئيره النيام، ازداد من صوته الوحيد غربة وجفاء.

لا يبالي أحد بتلك العصافير ولا قطط وكلاب الشوارع قط، أُمٌّ ينفطر قلبها على ابن لها مجند في الصحراء ـ أو زوجة على زوجها غفير الليل حارس النيام بيقظته.

تفتقد»رحمة« وأمها لذلك الأب والزوج الذبيح غدرًا، يتذكران كيف كان بينهما فى هذا الوقت يدفئهم وجوده ويكثرهم صوته.

مارينا.. تتذكر طقوسًا لها كانت مع زوج النضال في مثل هذه الأيام وهم يرتشفون القهوة الساخنة، بجوار مدفئتهم العتيقة.

يحتاج الشتاء الأنس ودفء الأحبة قبل الأغطية، ما أشده من شتاء عندما يجتمع سقيع البدن مع الروح التي تعرت من حبيبها..

أما هذا المكان البعيد النائي فكان الأمر فيه أشد، فصوت الرعد جلاله أقوى حيث المساحة الشاسعة وزفرات المطر محيطة بالأسماع لا يقطعها صوت تلفاز ولا راديو ولا جيران ساهرون، الأضواء المحيطة أقفلت إلا

من أبراج المراقبة حول السجن، الصورة أشبه بمقبرة، والزنازين شواهدها زاد من حدة ذلك على من بالداخل، تلك الأمطار التي تسربت من السقف لأول مرة حيث إنها المرة الأولى لشتاء غزير هذا الفصل وأغطية خفيفة من إدارة السجن، فكانت ترتجف الأواصل والأبدان من البرد، الأطراف قد تيبست من السقيع والأعضاء تنتفض والعيون تحبس بعزة دمعة على الحال، تتمنى النزول لعل من حرارتها تدفئ الأبدان.

دون اتفاق بينهم فقط توافق خواطر، كل الزنازين التي تسربت إليها القطرات قام رجال منها أمام بعضهم ورفعوا أحد ملاءتهم ليمنعوا بها الماء السقوط على الأرض وعلى من تحتها على أن يتناوب النائمون تحت الملاءة، نفس المهمة للواقفين الآن في يوم شتاء آخر.

أتى النهار أخيرًا على العباد والمنازل والأرض وعلى العقاب بالطبع، لم يأت بكثير من دفء، أو لا دفء له على الإطلاق، فقط هدوء لتلك الأمطار ومن بعض قطرات المطر التي تتسرب من الأسقف المعدة جيدًا لذلك التسرب، مر ذلك بشكل أكبر مع دخول وقت الظهيرة وبزوغ الشمس أكثر وهدوء الجو لكن مخلفات هذه الليلة لم ترحل وربما مستمرة قليلًا فكان أكثر من تأثر الكهل (مجدي عاطف) وذلك لأمراضه القديمة وألم عظامه الدائم قد ازداد ألمًا مع وعكة برد شديدة يزيد من شدتها كبر سنه الذي ما عاد يقوى على ذلك.

وكما أصيب الكهل، كان الأثر الثاني الأكبر في زنزانة «ثلاثين» على «وائل» ذلك الذي يبدو للأنظار في الخارج قوي بدنه لكن الداخل يحوي الكثير، فقد زادت موجة الصقيع الليلية من ألم روماتيزم العظام عنده للحد الذي جعله يتألم دون جدوى من حراس السجن وإدارته، لم يكن هذا حال



زنزانة ثلاثين فحسب بل كل زنازين العقاب - بل العقاب ذاته فقد أصيب في كثير من أسقفه وحوائطه واقتلعت بعض الأشجار المتناثرة خارجه من شدة الرياح وترامي الأطراف حوله.





(٧)

«يحتاجون للرغيف قبل الأكسجين النقي
وللباس يقيهم البرد قبل لباس التقوى»



مرت أيام وليالى اقتربت فيها القلوب تلقائيًّا بفعل ما مر بهم وإحاطتهم بكبيرهم (مجدي) والشاب «وائل» فيما أصابهما جراء تلك الليلة الشهيرة كان ما بعدها أقل حدة لكنه فصل الشتاء لا يتوقع منه غير البرد والمطر.

قربتهم المحنة أكثر فأكثر توقفت قليلًا جلساتهم الحكائية والمناقشات، لكن ثمة ما هو أقرب، تفاعلهم وتقسيمهم الأدوار على بعضهم البعض وإن كان في النفس ضجر وضيق وقيد لكنها محاولة التأقلم الثقيلة.

«فرنسا» يداوم على مراسم عمله بسلاسة، يخرج في الصباح عندما يفتح الحارس الزنزانة له ليستلم التعين ولا حرج من تدخين بعض السجائر قبل الدخول، يختار من يخرج للتريض بالاتفاق معهم، لكنه يظهر أمام الحارس وكأنه الآمر الناهي، ولا مانع من بعض السباب البسيط لكنه لم يمر مرور الكرام هذا يوم عند فتح الحارس، وكان من التقليد أن يكون الكل جالسًا إلا «فرنسا» يكون وحده أمام الباب، وكان شرقاوي واقفًا يقضي أمرًا ما فاضطر «فرنسا» لتوبيخه أمام الحارس فلما لبث أن عاد فرنسا بالتعين حتى تعلق في ياقته «شرقاوي» أنا أمي جاحدة يا ابن....

حتى أحاطهم الجميع يُحيلون بينهم لإنقاذ الموقف قبل أن يحدث اشتباك.

أُنقذ الموقف بل وتحول لمزحة قد غابت عنهم طويلًا خرجت عفوية عند رد «فرنسا»

ـ لقد اخترت شتمة عربية فصيحة لكنك غالبًا لا تعلم سوى ثكلتك أمك.

أثار رده ضحكاتهم دون «شرقاوي» الذي تركه متراجعًا إلى مربضه.

عادوا مرة أخرى لمناقشاتهم بعد وقت طويل كانت بينهم بعض مناقشات ومناوشات لكنها دون جلوس متفق، وبفعل احتكاكهم اليومي التلقائي جعلهم لا يحتاجون بشدة لتلك الجلسات حيث إن الهدف الأكبر فيها كان الألفة بينهم الأمر الذي بدأ ينشأ بينهم، لكنهم شعروا بحاجتهم لذلك، هذا عندما أحسوا بتشتت أحاديثهم الجانبية والثنائيات التي بدأت تنشأ على استحياء وإن كانت ليست دائمًا، فالتناوب سمتها وما جعلهم يعودون أيضًا لجلساتهم تحسن حالة (مجدي) وحالة وائل.

اجتمعوا كعادتهم لكن ليس في صحن الزنزانة هذه المرة، ولكن اقتربوا على كبيرهم (مجدي) فهو لابد له من حائط ورائه، فلم يتعاف بالكلية حتى الآن، تنازلوا طوعًا على ألا يكون «شرقاوي» بطل اليوم، بل ليكون «وائل» وذلك بسبب قربهم منه فترة وعكته واحتياجهم لمعرفة المزيد عنه، الأمر الذي قابله «شرقاوي» بالترحيب بل جاء على هواه فقد كان يود التأخير به لشيء في نفسه.

بدأ «وائل» بالحديث عن نفسه قائلا:

ـ أنا طبيب أسنان أحمل الجنسية الأمريكية حيث محل الميلاد، والدي طبيب أسنان وأمي أيضًا.. هنا مازحه (فرنسا):

ـ تعينك أبناء عاملين تقصد

تلقاها «وائل» بضحكة أكثر مما تحتمل المزحة ربما لتعطشه لضحكة أو

مزحة أصبحت نادرة، ثم أردف..

ـ كل ما حولي لا ينبئ بهذا الذي أنا فيه شاب أحب الحياة والموضة والضحك، لذلك لا أجيد الحزن حتى في المواقف الحزينة، لا أدعي أن لي أيدلوجية مثلكم لكنني فقط صاحب طموح ما كنت أعلم توابعه.

عشت كثيرًا في أمريكا حياة رغدة مريحة، لكنني دائمًا كنت أحب ذلك البلد.

الكثير من أصدقائي كانوا يستغربون ذلك لماذا تترك الرفاهية والحداثة وتأتي إلى هنا كنت آتي إلى هنا لتفاصيل ما أحتاج إليها، فأنا بجانب عملي كطبيب أنا محب للأدب أكتب الروايات، في بلدنا تفاصيل تسترعي انتباه الأديب ورائحة عتيقة لا يستطع تمييزها سوى من كان ذا أنف أصيلة.

.. طموحي هو أن نوجد الأكسجين الذي تنعم به أمريكا، هنا لا ينقص حداثة ولا ينقص علم وإن كان ثمة تأخر عندنا لكن كل ذلك يأتي به الأكسجين، وما أعنيه بذلك هو الهواء النظيف من الحرية وتقبل الآخر والانطلاق والتجريب ومشاركة الشباب الفعالة، رأيت أن هذا أكثر ما ينقصنا هاهنا، تحدثت في ذلك مع بعض الأصدقاء فأصبحنا مجموعة كبيرة كانت كل أعمالنا على صفحة لنا على الفيس، تسمى أكسجين على اسم الحركة.

عندما زاد الأعضاء نزلنا إلى أرض الواقع بكل سلمية فقط رافعين لافتات.

اعلم أن المناخ لا يحتمل هذا الفعل، لكن ما جعله لا يحتمل هو غياب ما نبحث عنه، كنا نريد الحل ليس التأزم، للأسف زايد علينا الكثير بل حرض

علينا الكثير من الإعلام وصوروا للناس والأمن أننا مخربون فكانت قبلنا القوات في مكان التجمع، وتم اعتقال كل المجموعة ثمانين شابًّا وفرقونا على الزنازين ولما علموا بأنني صاحب الفكرة أصبحت تهمتي قيادة تنظيم ضد الدولة وأتوا بي في زنزانة القادة.

قال كلمته الأخيرة بابتسامة خفيفة ثم أردف أشد ما أحزنني قبل الاعتقال هم أولئك البسطاء الذين قاموا بدورهم قبل رجال الأمن وأخذوا يقذفوننا بالحجارة، كنت أستغرب أن هؤلاء من ننادي بحقهم لماذا يستعدوننا ولا يستعدون من يضيق عليهم، ومن استطاع أن يقنعهم بأننا أشد أعدائهم؟ هل الإعلام وحده قادر على هذا؟... لا أعلم.

ـ رد عليه هنا (فؤاد):

ـ لا تأتي عليهم، هم ضحية وليسوا جناة، ضحية تعليم وإعلام أضلهم وقلب الموازين في نفوسهم، فأولئك المواطنون خرجوا عليكم بكل وفاء للبلد ولكن بفكرهم هم، ونحن أيضًا على خطأ طالما تناقشت فيه مع قادة حزب الكادحين، كنت أقول كيف بحزب للكادحين يعزف عنه الكادحون؟ نحن نتعالى عليهم بالمصطلحات ومفاهيم لا تعنيهم، لا ننادي باحتياجهم المباشر من خبز وطعام وعلاج نحن غارقون في رفاهية فكرية على صفحات الجرائد وبرامج التوك شو التي كنا نخرج فيها حتى حركتك يا «وائل» لا تنادي بهمومهم المباشرة، فقبل الأكسجين يحتاجون هم للرغيف، وأقول لشبارة قبل لباس التقوى يحتاجون لباسًا يقيهم البرد، هم لم يأخذوا من وقفاتنا سوى تعطل وسائل المواصلات لهم أو غلق بعض المصالح الحكومية أحيانًا نحن استعديناهم دون أن ندري.

رد لم يعقب عليه أحد وكأنه محل اتفاق بينهم، واصل بعدها» وائل»

ـ لا أكذب عليكم أنني ما كنت أتخيل تلك النهاية للحركة بل دومًا كنت أتحدث أننا لا نعادي الدولة، فليس لنا مرشح ندعمه ولا جماعة وليس لنا أي مشكله مع هيئة أو جهاز في الدولة، نحن شباب لا نستعدي أحدًا، ما كنت أنتظر ذلك أبدًا، ما كنت أحبُّ الندم لكنه يقترب مني بشدة، ليس ندمًا على المطالب ولكن على النزول.

تدخل (مجدي) قائلًا:

لن تحيا فكرة لم ينزل بها معتنقوها على أرض الواقع، الخطأ ليس عندك الخطأ عندهم، قلت مرارًا السجن للأبدان، والأفكار تخلق بعيدًا، إن أردتم أن تنهوا على فكرة ناقشوها أو دعوا لها الأرض والناس تحكم.

تدخل «شرقاوي»

ـ كل فكرة ليس لها سند من عقيدة دينية صاحبها لن يتحمل كثيرًا فنحن نتحمل مثلًا لاعتقادنا بأن كل يوم لنا أجر والموت لنا شهادة ونعمل للجنة.

أستغرب كيف تضحون إلى لا شيء لمجرد الحياة أو عيشة كريمة.

رد «فؤاد»:

لماذا تربطون الفوز بالجنة بأن تكون الدنيا دار نصب وتعب؟ ولماذا تربطون بين العيشة الرغدة في الدنيا وخسارة الآخرة؟ لا أرى أن الدين يدعو لذلك، نعم معرفتي قليلة بالدين لكنني أعلم أن هناك آية تقول ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] ـ يعني أن مطالب الحياة طيبة يمكن أن يكون مطلب قوي ومقنع لأن نثور من أجله، لا أعتقد أن الدنيا مجرد مزرعة لآخرة أو ممر عليها.

همَّ «شرقاوي» بالرد.. فأشار إليه (مجدي)

ـ أن كفى، ذلك سيأخذنا إلى الجدال دون سماع (وائل) صاحب الليلة.

كان رد وائل..

ـ لكنني مستمتع بالحوار: ـ

سأله (مجدي) أخبرنا عن مرضك خاصة أنك ما شاء الله تبدو رياضيًّا.

نعم مرضي جزء منه وراثيًّا، وعلى العكس ليس له كثير من الرياضات التي أقوم بها، حيث إنه في الأساس مرض عظمي ـ المشكلة الآن في منع الدواء وأنا تأتيني نوبات كثيرة وأخشى تفاقم المرض أريد أن أسألكم أنا هل من الممكن أن يجدد لي بعد الحبس الاحتياطي هذا..

رد أستاذ (مجدي) للأسف نعم كل القضايا السياسية يجدد لها حتى حين وأحيانا لا نُستدعى للنيابة يكون التجديد تلقائيًّا.

صمت لبرهة مصدومًا من الرد فهو يعد الأيام انتظارًا لمرور تلك المدة ولا يتخيل مجرد التخيل أن تجدد له مرة أخرى بعد تلك الأربعين يومًا.

معيشته ومرضه وحياته التي كان عليها لا تجعله يستطيع التأقلم أو تحمل تلك الحالة الصعبة للغاية.

ثم ردَّ بعدها: ـ

تخيفني تلك الكلمات التي على الجدران أتقي دائمًا النظر إليها ما قولكم فيها؟ من كاتبها؟..

«لن يتذكرك أحد ولن تكون رمزًا للبطولة ولا أيقونة النضال، الحياة من

غيرك سارية لم تنقصها شيء، أنت من ينقصك حريتك، السجن ليس فعلا يصنع تغيرًا، ولا عملًا للبشرية عظيمًا، السجن ملفظ للبعض عن الحياة، ومن لفظته الحياة ليس بالضرورة له الآخرة، وذلك هو الخسران المبين».

رد «مجدي»..

كنت لأيام طويلة قبل مجيئكم أواجهها وحدي ولا أنكر أنني كنت أتأذى منها رغم كل خبرتي، لذلك أعلم أن وقعها عليكم أكبر، لا أدري هل كنتم تلحظون محاولات إخفائي لها دائمًا، كنت أجلس وأجعلها من خلفي حتى أخفي بعض كلماتها عنكم أو أقلل من ظهورها الكامل لكم.

صمت الجميع لبرهة ووجهوا قبلتهم صوب تلك الكلمات أخذت عقولهم وقلوبهم أكثر من أي وقت مضى حتى قطع عنهم ذلك الانتباه (مجدي):

أنتم الآن تحققون رجاء وهدف من كتبها من أجل أن يفتَّ في عضدكم، دعوها دعوها الآن ولنكمل حديثنا.

* * *

اليوم.. بوح غريب من نوعه..

بوح شديد المصرية والمحلية، وإن كان من «فرنسا»

بوح اضطر إليه بعد إلحاح من رفقة الزنزانة، بعدما اعتذر «شرقاوي» ليوم آخر، بوح قد وافق عليه شريطة أن يتحدث على راحته فيما يعرف ويفهم، بعيدًا عن حكيهم السياسي الممل، وأيدلوجياتهم التى يراه لا تملأ البطون الخاوية.. على حد تعبيره.

ـ ليس لي الكثير من خبرات أو حتى مجال بعينه أستطيع أن أدلى بدلوي فيه، سوى السجون، فأنا شاهد، على تطور حفلات التشريف فيها والمفردات، وهى المجال الوحيد الذي وجدت فيه نفسي حتى إننى ترقيت إلى «نبطشي».

استثارت كلمته الأخيرة ضحاكتهم، حتى شاركه وائل ـ ونبطشي على مجموعة ليست كأي «فرنسا»

ـ بالفعل نعم أعتز بذلك.

تدخل «فؤاد»:

ـ بما إن السجن تخصصك الأوحد نبئنا كيف سلكت ذلك الطريق؟

ـ في الواقع أنا لم أختره، هو اختارنى بعدما لفظتنى كل المهن التى حاولت شغلها، وأهمهم المهنة الأحب إلى القيادة، هى من أسلمتنى للسجن،



فدائمًا أكثر ما نحب يسلمنا لما نكره، تقريبًا فى قصتي الكثير ما يشبه قصة شرقاوي، لكن خياراتي كانت مختلفة لاختلاف الثقافة والشخصية، أعترف أنني كنت ذا ميول منحرف من صغري، ولن أقول إن الظروف وحدها هي من اضطرتني لذلك، بدأت قصتي عندما استوقفني ضابط مرور، وحرَّر ضدي مخالفة كبيرة ولم يكتف بذلك، بل سحب الرخصة، وهذا ما أثار حفيظتي، فتحسبنت عليه وعلى ظلم الحكومة، فما كان منه إلا أن صفعنى على وجهي، الأمر الذي لم يحدث طيلة حياتي فقد كنت ذا هيبة ووضع فى منطقتي، فرددت له ضربته وتطور الأمر بيننا حتى انتهى الأمر بأن قبض عليَّ عندما أتته قوة، وتم عمل محضر لي كبير تعدٍ على ضابط، وكان من الأحراز مطواة خاصة بي، وقطعة حشيش، أعترف أنهم كانوا معي ولم يتلفقا لي، لذلك قلت إن الظروف فقط كانت عاملا مساعدًا، أعتبر هذه الحادثة هى البداية، نعم، فمن أجلها أودعت السجن خمس سنوات، والسجن لشخص مثلي لن يكون أبدًا إصلاحًا وتهذيبًا، وأظن أنه للجميع كذلك، ما نتعرض له من قسوة أحيانا تقسي قلوبنا أكثر مما هى عليه، الإهانة التى لا نستطيع ردَّها على أصحابها، تتحول لطاقة عداء، وأحيانا تؤدي إلى تنحس الجسد والروح وما عاد يشعر، وهذا الأخطر، بالإضافة إلى المعرفة بالجنائيين، عندها وجدت تلك الميولة الانحرافية لمن يوجهها.

تدخل «مجدي»..

ـ ما كنت أظنك بهذا العمق والفهم حقيقي يا «فرنسا» دائمًا ما كنت أقول فليكتفوا بالسجن عقابًا ليس أشد من الحبس، لكنَّ الأذية الجسدية والمعنوية ليست عقابًا على الجرم قدر ما هي عقاب للإنسانية التي بداخلنا وللجزء الذي مازال يشعر، بعض السجون في الدول تستغل السجن كي

تزيد حالة الشعور داخل السجين، وتنمي بداخله حالة التذوق للجمال، حيث إنهم يرون أن نقصها هو سبب الانحراف والعداء..

أردف «فرنسا»..

ـ من هذا الوقت تغيرت كليًّا، بالتعرف على الجنائيين ونشاطاتهم وكنت أنتظر يوم الخروج لا لأتوب أو أستقيم ولكن لأمارس بعضًا من تلك الانحرفات، مثل الإتجار فى الحشيش بعدما تعرفت على منابعه وتجَّاره.

طقوس السجن كانت الطقوس الأمثل لشخص مثلي فانسجمت معها سريعًا، تشاجرت كثيرًا مع عتاة الإجرام حتى يكون لى وضع فى الزنزانة، هان عليَّ جسدي أحيانًا عندما كنت أخبط رأسي فى الحائط لكي أخرج من أمر أننى تعديت على سجين آخر.

«فؤاد»..

ـ لكن ذلك لم نره معنا، ورأيناك سهل الترويض.

ـ نعم حقيقي، أنا أيضًا أعرف تمييز الناس وتعلمت منذ صغري أن يكون لكل واحد قدره، بالمناسبة، كثير من الجنائيين عندهم بعض الخُلق لا يمكن أن يتنازلوا عنها، الكلمة عندنا بالفعل شرف ورجولة، الخيانة أكرهها، والعيبة عمري ما أخرجها لأهل الأدب، والعرض والشرف أمر لا أقبل المساس به، نعم ماتت بداخلنا قيم، لكن ذلك ليس معناه أننا دون أية قيم أو أخلاق، وذلك طبع أغلب أهل الحواري والشعبيات حتى المنحرف منهم، لا أرى أية جدعنة في أن أفرض قوة أو بلطجة عليكم، ولا أرى منكم أى انتقاص لي، قلت إن هذه الأمور نفعلها مع الجنائيين لأنها السبيل الوحيد كي تكون بينهم، إما ذلك أو أنك لن تجد مكانًا للنوم بينهم، أو

يؤخذ منك متاعك أو سجائرك، أو يفعل معك ماهو أكثر.

بعد قضاء تلك المدة، خرجت ومارست الكثير من الانحراف ولم أتعظ حتى دخلت عدة مرات...

«أنس»..

ـ حدثنا عن حفلات التشريف وتطورها كأحد المعمرين، نعم تعرضنا لبعض ذلك لكن نريد أن نسمع قصصك فى ذلك..

ـ حفلات التشريف تختلف من سجن لسجن، وبين مأمور وآخر، وطبعًا بين زمن وآخر، قديمًا كانت أكثر قسوة، ولها أكثر من فقرة، لتحقيق معنى الحفلة، أما حاليا فتحتوى الحفلة على فقرة واحدة..

ثم أردف بدعابة..

ـ قل بركتها مثل كل شيء. الفقرات طبعًا كانت طرقًا فى التعذيب، أول فقرة تبدأ قبل الوصول للسجن فى عربة الترحيلات، حيث يقوم السائق بعمل فرملة مرة فجأة، فيصطدم كل سجين بآخر وأحيانًا تكسر لهم أضلاع وأطراف من شدة التصادم، وأظن ذلك حدث معك على الأقل مرة واحدة داخل سيارة الترحيلات، وما حدث معكم هنا من تشريف هو تشريف تقليدي معتاد، حيث المشي فى ممر ضيق محاط بعساكر الأمن المركزي، يتناولون عليكم الضرب المبرح، قديمًا كان ذلك يحدث لكن بعد فقرات أخرى، فأصعب تشريفة تعرضت لها كانت فى يوم مطير للغاية وجو شديد البرودة خلعنا كل ملابسنا تحت المطر والعساكر يتحامون بالمظلة من المطر ظللنا كذلك حوالي أكثر من نصف ساعة حتى انقطع المطر، هاج علينا العساكر بالعصي فى هذا الجو والأطراف متجمدة بضرب قاسٍ، وآخرون

بسياط تلهب وما بالكم فى هذا السقيع، ثم بعد ذلك، في هذة الساحة المحاطة بالأسوار، أطلق علينا العساكر قنابل مسيلة للدموع، منا من اختنق وأغمي عليه، كانت حفلة كما قال المأمور لن تنسى، التقليد الثانى وهذا معمول به إلى الآن للجنائيين بعد التشريفة هي: القرفصة، نقرفص في ممر طويل كلنا، كل سجين خلف الآخر، لنقوم بعملية إخراج جماعية وذلك لأن بعض الجنائيين يبتلعون بعض لفافات الحشيش والبانجو الصغيرة، ليخرجوها في حمام الإيرادات ليدخنوها، وهذا أمر معروف بين الجنائيين من وسائل تهريب الحشيش.

قاطعه «وائل»..

ـ ماهي الإيرادات؟

ـ الإيرادات هي مكان للحجز مختلف اسمه مثل ما يسمى فى القسم «الحجز» وفى المحكمة «التخشيبة» وفي السجن «الزنزانة» يجتمع فيها كل النزلاء الجدد كإيراد جديد للسجن قبل التوزيع على الزنازين لذلك سميت الإيرادات، فى الغالب أيضًا للجنائيين لا أعلم هل ذهبتم لها أم لا..

داعبهم بخفة ظل..

درس خصوصي، من خبرة سنوات أعطيها مجانًا، رغم أنى لم أعرف منكم «سوى» أيدلوجية، دعابة تلقوها بضحكات صادقة..

قائلا له «فؤاد»..

ـ لا أحد عديم الخبرة ولا أحد عديم الفائدة وإن كانت خبرة في أحوال السجون

ـ لي سؤال ماهو سبب تسميتك فرنسا..؟

ـ كنت ميكانيكي قبل أن أعمل على التاكسي، وكنت لا أعمل إلا فى السيارات الفرنسية البيجو، والرينو، السيارات التى كان يتأفف من العمل فيها أغلب الصنايعية، فعرفت بفرنسا بين السائقين، والآن بين الجنائيين..

انتهى ذلك البوح الذي كان الأخف والألطف ممن سبقه فى أيام أخر، بفضل ما تخلله من دعابات، ليترك على وجوههم بعضًا من البسمات، آثروا النوم بعده، ليكون نومًا على بعض الترويح عن النفس.





(٨)

«لقد قتلوا بداخلي الكثير كي أصل لدرجة قاتل»





دخل إلى عشته بعدما انفرط عنه أصدقاؤه بعد ليلة طويلة حرق فيها من أجل مزاجهم عشرين حجرًا من تبغ المعسل المنثور ببعض قطع الحشيش المعتق، دلف إلى عشته بعدما مر على جراحه وتفقد السيارات بجسد يتهادى وعقل غائب ليذهب في نوبة عميقه متأثرًا برائحة الدخان التي تملأ المكان ورائحة عشته المكمكمة والتي تحوي الكثير من الكاوتشات التالفة وبعض دواسات أرضية السيارات.

قُطعت نومته العميقة بقرع على باب العشة بقوة وهو يظن أن ذلك ضرب من الأحلام أو أن مفعول الحشيش قد بالغ معه، لم يقطع ظنه هذا إلا بدخول هؤلاء الطارقين عليه كالموت المفاجئ بعدما كسروا الباب الوهن، وجدهم أمامه ملثمين، أعينهم تريد أن تنقض عليه وهم يشهرون إليه مسدساتهم بحسم، وقبل أن يتكلم بأي شيء أمطروه برصاص قد اخترق كل جسده ليرديه قتيلًا مدرجًا في دمائه وينصرفوا سريعًا قبل مجيء الشروق بنوره عليهم ليستقلوا سيارتهم السوزوكي ذات السبعة مقاعد إلى جهة يختفون فيها.

قد سمع البعض أصوات طلقات الرصاص لكن لم يتوجه صوبها أحد، فكثيرًا ما تأتي هذه الأصوات من هذا الاتجاه عند جراج (كعبورة) فلعلها أحد غزواته أو مشاكله اليومية حتى الظهيرة عندما أتت الشرطة ببلاغ من أحد المارة عندما وجد باب عشة حناطة مفتوحًا ويخرج منها نهر من دماء، وحناطة بالداخل قتيلًا...

* * *

في ليل هذا اليوم كان اجتماع آخر بنفس كيفية اجتماع أنس ورفاقه لكنه بأشخاص آخرين، ومسجد آخر، فبعد الافتتاح بالقرآن تحدث جابر مسؤول الجلسة إلى إخوانه المتحلقين به.

ـ اليوم نجتمع على حدث ونقلة نوعية كبيرة لمقاومتنا لهذه السلطة الغاشمة، فقد جاء ما كنتم تتمنونه كثيرًا بعد جدال فقهي وشرعي كبير استقر الأمر على العمليات النوعية الرابعة بالقواعد التي اتفقنا عليها من قبل.

وكانت أول العمليات اليوم التي قام بها بعضكم والقائمة لدينا طويلة

نكرر الأمر العمليات للردع يا إخوة، ولن يكون فيها مجرد شك، القائمة تحوي كل ما ثبت وأنه تعدى علينا أو ظلمنا بشكل مباشر، بدأناها اليوم بأعوان الشرطة وكلابها الضالة، وكان أول العمليات المجرم (كعبورة) من تعدى كثيرًا على الأخوات في المسيرات ومن قام بالإرشاد عن مجموعة أنس وقام بإطلاق النيران من قبل على أحد الإخوة.

التخلص من مثل هؤلاء ليس فقط انتقامًا لنا بل للبشرية، فمثله عالة وأداة في يد كل نظام فكم روَّع الآمنين؟ وكم شارك بالزج بإخواننا إلى السجون؟

لن نقف مكتوفي الأيدي بعد الآن، ولن نقف لتلقي الضربات من هؤلاء الكلاب الضالة..

* * *

يوم جديد انقضى من تلك المدة الغير محددة، ما أثقل انقضائه عليهم وأسرعهم على أصحاب الأعمال الكثيرة في دروب الحياة الذين يشتكون دومًا من عفرتة الساعة وقلة بركة اليوم.

هكذا قال «فؤاد مندور» بينهم ذات يوم

ـ نفس اليوم الذي كان يتسرب من بين يدي دون إنجاز الذي يمرُّ مسرعًا واشتكى من احتياله علينا وسرقتنا، ما باله الآن يظل معي أربعًا وعشرين ساعة بالتمام والكمال ما باله الآن أصبح لا يبخسنا في الساعات.

أتى يوم جديد لا سبيل لـ «شرقاوي»سوى الحديث عن نفسه، الكل ينتظر وما عادت الأعذار تجدي، اليوم سيفتح صندوقًا طالما كان مغلقًا على أسراره.

بدأ قائلًا: ـ

في البداية أحب أن أرسي قواعد، إنني لست بحاجة للكذب أو التجمل، حيث إن أفكاري التي أعتنقها هي مدعاة للفخر عندي، ومساحيق تجميل حياتي التي أصبح لها هدف لا أدري من أي محطة أحكي ومن أي حادثة أبدأ.

تدخل معه (فؤاد) أريد أن تبدأ من الحب؟

«شرقاوي».. أيُّ حبٍّ؟

(فؤاد) ـ حبك لزوجتك، اجتمعت كل القصص حتى التي تجابهك أنك تكنُّ لها محبة كبيرة، بل كانت سببًا في تسليم نفسك ذات مرة ـ كنت أستغرب دائمًا هل من الممكن أن يكون لك قلب يحب وأعتذر منك عن ذلك فكل أفعالك خشنة وعرة لا مجال للعواطف فيها.

حدثنا عن حبِّك لزوجتك أو كيف كان تعارفكما؟

نكَّس رأسه المرفوعة دائمًا في شموخ مقصود منه دومًا، وكأنَّه أتى عند مصدر تلعثمه، وهو صاحب العبارات الثقيلة والقوية دائمًا، قد جاء عند العاطفة التي يتنكر منها دومًا ليبدو شديدًا.

تدارك نفسه سريعًا..

فليكن حديثنا عن الأفكار أفضل.

قاطعه هنا (أنس)..

وهل في حبك لزوجتك خجل أو أمر لا ينبغي الحديث عنه (النبي صلى الله عليه وسلم) كان دائمًا ما يعلن عن حبه لعائشة باسمها في مجالس الرجال، أليس كذلك يا شيخ؟

نظر إليه «شرقاوي»

ثم أومأ برأسه أن نعم ـ ثم تنهد وقال سأحكي، ثم قال اسألوا وسأجيب:

قال (فؤاد): ابدأ بالتعارف ونشأة العلاقة بينكما

«شرقاوي» ـ حاضر

أول ما عرفت زوجتي كانت في حادثة قطار.. لم يكمل حتى قاطعته

ضحكات مستمعيه العفوية وهو ينظر إليهم مستنكرًا لا يجد سببًا للضحك حتى قال لفؤاد ما يضحكك..؟.

ـ فؤاد ـ البداية حادثة! حتى التعارف كان في حادث! ابتسم «شرقاوي»

ـ هذا ما حدث أكمل أم ماذا...؟ الكل في شغف لا لا أكمل

عاد مرة أخرى..

ـ نعم البداية كانت في حادث للقطار كنت وقتها طالبًا بكلية حقوق جامعة طنطا، وكنت على باب القطار، وكانت (مريم) تهرول كي تدرك القطار الذي بدأ في التحرك، فإذا بقدمها قد زلَّت عند باب القطار، فوقعت على الرصيف وكادت تسقط بين الرصيف والقطار وتقع لا قدر الله تحت عجلاته فتدهس، عندما اشتبك جلبابها بالقطار كنت أنا في الباب الآخر لتلك العربة، فقفزت من الباب مسرعًا نحو الباب الذي شبك فيه جلبابها وأنقذتها وتسبب ذلك في بتر إصبعين من أصابعي وأصيبت هي بسحجات في ساعدها وجروح كثيرة، ذهبت بها إلى مستشفى قريب أنا وبعض الناس من المحطة تداوينا معًا، وجاء والدها وأمها للمستشفى، ومن هناك نشأت المعرفة.

تمتم فؤاد قائلا ـ البداية كانت إنقاذ نفس من الموت، فكيف أصبح القتل وحمل السلاح جزءًا من تنفيذ ما تعتقد؟..

«الأمر ليس كما تظن، سأروي لكم كل شيء في الحال، كانت «لمريم» سحر رباني خاص على الرغم من زيِّها الفضفاض إلا أنها جاذبة للأنظار، وجه ملائكي دون تجمل، وعينان لا يبرحان موضع سيرها من الحياء،

رغم ذلك لا تستطيع أن تطيل النظر إليها فلها نور يذهب بالأبصار، أو جلال في وجهها ما زلت أنكسر أمامه.

قاطعه (وائل) بتفاعل تلقائي؟

ـ الله الله أنت شاعر يا شيخنا، ما كنت أتخيل أن يخرج منك هذا!

«شرقاوي»..

ـ ولا أنا..... أكثر ما كنت أخشاه دومًا العاطفة، ذلك أنها مذهبة بالثبات والجلد، وأنا أخترت الخشونة في حياة لم تلن لي يومًا، أشعر وأن سقوطي سيأتي عن طريق اللين، أكثر ما يتعبني الآن ليست المواجع ولكن تظاهري الدائم بتحملها، لكن لا شيء سوى ذلك.

بدأت قصتي في أواخر الثانوية العامة وبداية الجامعة عندما عرفت طريق الالتزام كنت أسافر لحضور محاضرات كبار المشايخ لا أكثر ولا أقل، أطلقت لحيتي في السنة الثانية من الجامعة كنت لا أنتمي لأي من الجماعات الإسلامية لكني كنت شديد الغيرة على ديني، تلك الغيرة التي كان يراها البعض تشدُّدًا من شدة تفريطهم، وكان لي نشاط كبير بين أهالى منطقتي في محافظة الشرقية في أبو كبير، كنت مؤذنًا للمسجد المجاور للمنزل وكنت أمر على المحلات أعطيهم شرائط كاست لكبار المشايخ، وأدعو الشباب على نواصي الشوارع والمقاهي، فقط مجهود ذاتي ليس تابعًا لأية جماعة حتى بدأ يترصدني (أمين شرطة) يدعى (علي عبد الجواد).

فاعترضني ذات يوم وأنا أتحدث مع بعض الشباب وطالب بطاقتي فسألته لماذا؟ فرأى أن الأمر إهانة له، وكيف بشاب مثلي يسأله، فهو لا يُسأل عما يفعل ـ ثم أردف بعدها كي أخشاه أنه أمين لدى أمن الدولة،

المهم جذبني من ياقتي بشكل مستفز نحو الحائط ووضع يده في جيوب البنطال فنزعتها وأبعدته عني، اجتمع حولنا الشباب الكل يحذرني منه وأنه الأمين (علي عبد الجواد).

ما كان مني سوى (طز) قرعت بها أذنه من غيظي، بعدها نظر إلى نظر وعيد وألق ببطاقتي فى الشارع وانصرف، الجميع كان يلومني على ذلك وإن كان من الأجدر أن أستجيب له ولا أستعدي الحكومة، وأن تفتيش الحكومة وضربها ليس إهانة، كنت وقتها شابًّا وأدرس الحقوق، كنت أطبق ما تعلمت وما درست فما أسباب أن يري بطاقتي؟ وأين تحقيق هويته هو أنه من الأمن؟ لا أدري هل أنا كنت في قمة جهلي بواقع الشارع أم في قمة تمسكي بما تعلمت؟

لم يمهلني كثيرًا.. في الليل أتت الحملة واقتادوني إلى أمن الدولة، تعرضت هناك لبعض التعذيب البسيط، ظللت هناك لأسبوع، بعد التحريات عني علموا أنه ليس لي من نشاط خفي، ولا أتبع أية جماعات أو كانوا يعلمون من قبل، خاصة وأني كنت أوضح لهم كثيرًا أن الأمر شخصي بيني وبين الأمين، في النهاية خرجت وظننت أن الأمر انتهى عند ذلك لكنه لم ينته عند الأمين، فأراد أن يكسرني بين الشباب الذين اشتبكت معه أمامهم، فبُعيد تلك الواقعة بشهر جاءني مرة أخرى وكنت أنصح بعض الشباب وطالب نفس الطلب وهو يدفعني على صدري فرددت ذلك عليه واشتبكت معه فكانت عصا بجواري فأخذتها من الأرض وناولته بها على ذراعه وكفه، تجمعت الناس في الحال وذهب هو إلى القسم وأحضر قوة وأتت لتأخذني فهربت لأيام خارج البيت، وعلمت بعد ذلك أنني تسببت له في كسور في يده مضاعفة فكانت كل النصائح أن أسلم نفسي له حتى لا يختلق ضدي

اتهامات خارج إطار أنها مشاجرة شخصية.

بالفعل ذهبت للقسم كي أسلم نفسي، تعرضت لتعذيب شديد هناك للغاية وأجبروني على الإمضاء على محضر واعترفات لي بالانضمام لجماعات مسلحة، توالت المحاكمات وتوالت التهم لشهور، أخرج من تهمة أقع في أخرى حتى حُكِم علي حكمٌ نهائي بسبع سنوات ظلمًا وزورًا، قضيت منها حوالى ست سنوات ثم أتت الثورة فخرجت في عفو، وكنت أحضِّر لإعادة محاكمة عندما ظننت أن الثورة أتت بالعدل ولابد أن آخذ حقي، في هذه الأثناء اختفى ذلك الأمين وكل الضباط المشتركين في تعذيبي وبدأت بلادنا تاريخًا جديدًا، عدت للكلية مرة أخرى في السنة الثالثة أيضًا كان ذلك من أجل الثورة وأننا شبابها وكل طلباتنا مجابة، فاستطعت العودة في هذه المرحلة من الغفوة لكل ظالمي بلادنا، وفي هذه الأثناء حدثت حادثة القطار وتعرفت على مريم وقصصت لها قصتي عندما هممت بخطبتها فكانت أكثر الداعمين لي للخروج من تلك الأزمة النفسية التي تعرضت لها، وكانت أكثر من أقنعني بالتجاوز عن الماضي فقد رحل، هكذا ظننت وظنَّ كل أهل بلدي، تزوجتها بعد تخرجي ثم سافرت إلى ليبيا كي أعمل هناك وتركتها في الشرقية.

في هذه الأثناء بدأت فلول النظام تعود ونحن نتقاسم الثورة ونتشاجر على المكتسبات الوهمية حتى الشرطة بدأت العودة على ما كانت عليه في لحظات غفلة منا جميعًا، بل باركنا لها بعض الأعمال حتى تعود الأمور ويعود الانضباط الذي ذهب عن شارعنا منذ قيام الثورة حتى حدثت بعض العمليات هنا وهناك والانفجارات وجدتهم يبحثون عني ويسألون عليَّ في محل مسكني عند والدي بعد زواجي وأنني هربت إبان الثورة من

السجن على الرغم من أن السجن الذي كنت فيه لم يخترق في هذا الوقت وخرجت بعفو.

المهم توصلوا لبيتي وقاموا باقتياد زوجتي معهم حتى أعود من هناك، كان الخبر عليَّ شديدًا فكيف بتلك الخجول أن تكون بينهم، وكيف لها أن تتحمل ذلك؟ على التوِّ نزلت إلى البلد وتركت هناك عملي الذي كلفني بأن أترك أموالا وحقوقًا لي هناك، حيث إنني لم ألتزم بالتعاقد الذي يمنع نزولي فكانت الخسارة من كل اتجاه، نزلت وسلمت نفسي، وخرجت زوجتي التي تعرضت لبعض الإهانة منهم الأمر الذي أشعرني بكل المرارة والعجز، ظللت بالداخل بين القضايا والمحاكمات مدة سنة حتى خرجت لعدم توافق الأدلة ضدي، كل ذلك وزوجتي بجواري أقرب معين في وقت رحل من جواري الجميع خوفًا من بطش الأمن، نزلت للعمل كي تتكلف مصاريف التقاضي، كانت ورائي في كل جلسة، فوالدي شيخ طاعن في السن مريض، وأمي امرأة بسيطة، فكانت معيني وكل شيء لي في الوجود ومصدقي.

عملت بعد ذلك في محل سوبر ماركت كبير ككاشير، وكان الحال مقبولا حتى جاء ذلك العصر الجديد، بدأت أرى ذلك الأمين يعود من جديد إلى المنطقة، وعلمت أن القادم سيكون أسود لي، فقررت هذه المرة أن أستبق أنا، فأخذت زوجتي وسافرت، كنت أبحث في أرض الله الواسعة أبعد بعيدًا عن المشكلات والملاحقات، ذهبت إلى العريش حيث أحد الإخوة الذين تعرفت عليهم في رحلة الالتزام ذهبت إلى هناك وقد حدثني أكثر من مرة إلى الذهاب هناك، حيث السكن الرخيص، وهناك عمل في مناطق جديدة، فكانت وجهتي وبالفعل حدث ما توقعت، وجدت اسمي يتردد في وسائل الإعلام وصورتي في بعض الجرائم الإرهابية الخطرة.

فكان الطريق الذي أجبرت عليه أن أنتقم لنفسي من كل هذه المظالم، يئست من التقاضي في بلد لا يعرف سوى القوة، لا أقول أنَّ فقط أمر الانتقام كان دافعي فحسب، ولكن حتى الدعوة قد ضُيِّق عليها وتم القبض على المشايخ الكبار الذين درسنا عي أيديهم، رأيت أمام عيني ذلك المسلك الإصلاحي الذي انتهجته الجماعة، والأستاذ / مجدي، كيف ذهب بهم إلى غياهب السجون، عرفت أن المصلحين إن لم يمتلكوا القوة لردع الفساد أفسدوا فكرة الإصلاح كما فعل الأستاذ وأعوانه.

هنا رد عليه (مجدي) نحن من أفسدنا الفكرة أم أنت بانتهاجك العنف والقتل؟

رد «شرقاوي»بغضب:

أنا لم أقتل ـ لقد قتلوا بداخلي الكثير كي أصل لدرجة قاتل ولم أقتل ـ أنا كنت مجاهدًا وثمة فروق بين الاثنين...

نعم كنت أتمنى أن أرى بعيني مصارع كل من ظلمني، بل ويكون ذلك بيدي لكنني لم أفعل..

من انضممت إليهم كان من مبادئنا ألا نقوم بعمل خارج أرضنا ولا نذهب إليهم، فقط كنا نريد أن يتركونا في هذه البقعة نمارس حرية عبادتنا.

رد فؤاد...

ـ كيف ذلك أنت في دولة، كيف تستقطع جزءًا منها وتقول لا يحق لهم أن يهاجموكم، صحيح أنت تعرضت للظلم، صحيح أنهم من أجرموا في حقك من قبل ولكن هذا ليس حلًّا أبدًا.

رد «شرقاوي»:

ـ هم من منعونا من أن نعيش في قرانا ووسط أحبابنا، نحن لم نترك ديارنا عن طيب خاطر، هم من ضيَّقوا علينا الخناق، أنا هاجرت بعيدًا عن القتل، وبعيدًا عن ظلمهم لي، لكنهم لم يتركونى.

«فؤاد»..

ـ أريد منك إجابة واحدة، هل أنت صاحب عملية الضباط الأخيرة أو أي من جماعتك؟

«شرقاوي»..

هذه هي المفاجئة الكبرى: لا، كنَّا فقط رد فعل في تلك البقعة التي كنا نريد أن ننشئ فيها دولتنا أو قريتنا الإسلامية بعيدًا عنهم، كنا نهاجم من أتى إلينا ولم نقم بأية عملية خارجها.

«وائل»...

ـ إن لم تكن أنت فمن كل أهل البلد لا يعرفون سوى اسمك

«شرقاوي»..

نعم وهذا ما يؤلمني ما كنا نصده من عدوان علينا كنا ننزل به بيان ذلك كان من دواعي فخرنا، لا ننكر أي عملية قمنا بها أبدًا، نحن من نعلن عنها ويأخذ الإعلام من إعلاننا، ليس من خطتنا أي عملية داخل المدن، نعم اعترف كنا نفكر فى بعض الأسماء كتصفية جسدية لمن تورطوا من رجال الأمن فى تعذيب إخواننا بوحشية وانتهكوا حرمة زوجاتنا وبيوتنا لكن ذلك لم يحدث، كل ماقمنا به صد هجمات علينا في حدود ما اخترناه دولة

لنا، وكان تبادلا لإطلاق النار وقع فيه رجال من الجانبين، هناك جماعات أخرى، وبالمناسبة كانت تعادينا وترانا مداهنين، وكانت متعددة الجنسيات يتمركز أكثرها في سيناء ما يطلق عليه البعض الدواعش.

«فؤاد»..

أولستم داعش..!!

- «شرقاوي»لا يا سيدي رفضنا أن نبايعهم ولا أستبعد أننا أيضًا في محل نيرانهم قريبًا.

«فؤاد»..

إذن الأمر معقد للغاية، اختلطت علينا الأمور حقًّا فالكل عنده بعض الحقيقة وبعض الحق، كان لابد من ذلك الحوار، ولكن على العامة والملأ لابد أن يكون بيننا أيضًا أحد من الأمن، فعندهم أيضًا بعض الحق فكيف بالسكوت على كل هذه الجماعات وهم أيضًا من صنعوا بعضها.. لا أدري كنت أود أن تكون الأمور ثابتة ومحددة عندي.

«شرقاوي»..

- هل يؤذيك أن تشعر ببعض التعاطف معي وأن لي مظالم كثيرة..

لا أنا متأذٍ لك، أنت لا تدري كم الكره الموجه إليك من العامة وأهالى الشهداء، لا أعفيك من الخطأ ولكن ليس بذلك الذي يذكرونه عنك، ستكون أنت كبش الفداء لكل هذا للأسف.

«شرقاوي»..

- لا يهم سيكون في سبيل اللـه.

فؤاد:

ـ الأمر ليس مجرد عنترية أو حتى تضحية مثالية، لابد على الأقل أن تدافع عن صورتك تلك، ألا تؤذيك كل هذه اللعنات عليك، وكل هذا الكره نحوك وكل هذه القصص المختلطة عليك؟

سكت»شرقاوي» لثوان في انكسار..وماذا عليَّ أن أفعل.. هم جعلوا كل تقصيرهم على عنقي وأنا في الحقيقه كنت أتمنى الانتقام منهم جميعًا.

أنس..

كنت تتمنى ولكن لم تفعل ـ تحدث عن نفسك بحقها..

«شرقاوي»..

ـ قلت، وأقول كثيرًا:

فؤاد ـ تقول خطأ، لا تحسن الحديث عن نفسك كفى قولك في قاعة المحكمة الحكومة المارقة والشرطة الكافرة..إلخ.

«شرقاوي»..

ـ نعم كافرة وظالمة وحكومة مارقة، هذه هي الحقيقة، لن أداهن في الحق ولن أقول إلا قول الحق لقد صرحت يا «فؤاد» بدعمك المثليين وشربك للخمر، وأخشى أن أصرح بأنني أريد خلافة إسلامية وأريد عدلا كعدل عمر، وأريد مجابهة كل الظالمين.

«فؤاد»...

ـ السلاح ليس حلا، نحن في دولة القانون.

«شرقاوي»...

ـ القانون من أتى بك إلى هنا عندما استند وكيل النيابة إلى قانون الطوارئ وبالقانون سجنت ست سنوات ثم عام ـ القانون هو قانون الله وعدله المطلق في أحكامه، الحق ينتزع ولا يهدي، والعدل يقام بقوة هم لن يرضخوا لهتافاتكم ومعهم بنادق صوتها أعلى من حناجركم.

«أنس»...

سؤال.. أخير، كان لابد أن يكون فى البداية، ما أمر اسمك، ولماذا عرفت في الإعلام «أبو ذكرى الشرقاوي «

«شرقاوي»..

ـ اسمي، على محمد خطاب، ومن طبيعة جماعتي التي أعمل فيها للإسلام أن يكون لكل فرد فيها كنية، وفي الغالب ترتبط، بمدينة، أو قرية أو حتى بلدة، لو كان من بلد آخر، مثل من يكنَّى بالبغدادي نسبة لبغداد، أنا أبو ذكرى، ذكرى هي ابنتى، سميتها كذلك، حيث إننى منذ أن حملت أمها فيها وأنا أراها ذكراي التى أودعتها في أحشاء أمها، دائمًا أشعر أن نهايتي قريبة أو أننى على سفر دائم وغير مقيم، هذا أمر ذكرى، أما «شرقاوي» نسبة لمحافظتى الشرقية.

* * *



(٩)

«تصالح مع نفسك، فهذا هو النجاح الأكبر، فلا قيمة لنجاح يكون على حساب رضاها»





اليوم يوم الفصل، قرار جاء بعد تردد وحيرة ووقت طويل، إلا أنه القرار الأصعب والأثقل، تبللت أكثر من ورقة تحمل ذلك القرار، ويبدلها بأخرى، لكن دموعه معها تتجدد، دموع على أيام خوال كان يحمل على رأسه ذلك النسر الأبي، وعلى كتفيه نجوم مضيئة فى سماء قد أظلمت بالظلمات، يخلع بدلته لأول مرة بهذا الأسى، وكأنه ينسلخ عن جلده، وإن كان يرى دائمًا أنه بارتدائها يبدل جلده، لكن ارتداءها لسنوات جعلها شيئًا من شخصه وعشرته، لكنه أيضا كان يخلعها وفاءً لتلك العشرة، لا يريد خيانة تلك البدلة ولا الكاب المرصع بالنسر بأفكار قد لا ينبغي أن يدسَّها داخل جيوب تلك البدلة، رغم حيرته الدائمة لكنه كان مخلصًا لها دومًا، أراد أن يخلص أخيرًا لأفكاره ولا يخون شرف وهيئة طالما أعزته، عندما بدأت تتعالى حالة تردده وجد أن ذلك بداية النهاية، فلا يجوز له أن يحمل شيئًا ونقيضه، شعر بتخفف كبير من حمل تلك الأمانة الكبيرة، شعور وعكسه ينتاباه، حملٌ قد خف عنه، وعشرة طويلة يقطعها اليوم، لكنَّ عزاءه أن قطعتها قدر لها وله. دخلت عليه زوجته وهو على هذه الحالة ممسكًا بقرار مصيره القادم واضعًا بدلته أمامه على منضدته.

ـ ما هذا يا هشام..؟

ـ تلك استقالتي، يانورهان.

ـ استقالتك؟ كيف ذلك وكيف يكون بهذه السرعة؟

ـ بل كانت بكل التأني، أودُّ أن أرتاح، أعلم أن مصادر فخرك كونى ضابط شرطة، لا أحب أن أثقل بحزنك على ذلك، أتمنى أن تحبي لى ما يريحني، أتمنى أن تتقبلي ذلك.

ـ وماذا يفيد تقبلي من عدمه مادمت تعلمنى ولا تستشيرني.

ـ معذرة يا زوجتي، لكننى كنت أودُّ رفع كل الضغوط عليَّ، أما بخصوص تقبلك فهو أمر مفصلي، أريد أن أرى دعمك وليس ندمك على ذلك، فالأمر ثقيل على نفسي أيضًا، لا أريد أن أكمل فقط لأجل أن أرضيك، وإن كان أمر عظيم لي إرضاؤك، لكننى سأكون فى حيرة دائمة، لذلك أريد دعمك، خاصة وأننى قضيت الكثير، لى مآثر يعلمها القاصي والدانى، وحالات نجاح كبيرة رغم أنه ليس المجال الأحب إليَّ، وقدمت الكثير للبلاد، وسيظل ذلك فى تاريخي، أريد أن أفعل شيئًا لنفسي، لا أريد أن أخرج عن تقاعس مني أو إهمال، فبدأ الأمر يدخل على ويتملكنى، حالنا المادي رائع والحمد لله، ما أكسبه من حر مالى ومكافأت الداخلية وأيضًا ميراث والدي، أفكر فى شركة ما أصنع فيها حالة نجاح أخرى وأعود أيضا لكتاباتي، كما كنت مصدر فخركم سأكون فى مجال آخر، ماذا تقولين أريدك معي في ذلك، اكتفيت نجاحًا في الشرطة لا أريد أن أسمع دعوات ولا لعنات، ولا أكون خصمًا وخصيمًا، لا مطاردًا ولا مُتَعقبًا من أحد.

ـ على الرغم من صعوبة الأمر فلن أزيده صعوبة عليك، كما تحملت وأديت سأتحمل لأجل راحتك، فأنا أيضا أريدك، أريدك هشامًا بضحكاته وراحة باله، لم أرتبط بك من أجل البدلة، لكننى كنت أحبك للغاية لذلك أحببتك في الزي الذي أراه ذا وقار وعزة، ولقد أديت فيه بل وأصبحت

من أفضل الضباط، لعل ذلك بالفعل هو الأفضل من أن تترك العمل عن تقاعس أو عدم كفاءة، فيكون وداعك لها خير وداع وأنت في نجاح.

تصالح مع نفسك، فهذا هو النجاح الأكبر، فلا قيمة لنجاح يكون على حساب رضاها وتقبُّلها.

«هشام»

ـ أشكر فضلك وتفهمك يا زوجتي، فقط أمامي مهمة أصعب وهي إقناع اللواء «علاء بكري» رئيس القطاع.

❋ ❋ ❋

الليلة عودة إلى أزمنة قد خلت، لكن ثمة شيء من أثرها وصندوق من صناديق ذاكرتها في صدر ذلك المعمر، عمّر الكثير من الزنازين طيلة حياته، بدأ حديثه إلى رفقة زنزانته قائلا:

من أي الحوداث تريدونني أبدأ..؟

رد «أنس»..

- من أولها نريد..

- البداية بعيدة للغاية، سأختطف لكم شيئًا من مراحلها المختلفة.

كانت البداية ١٩٥١م عندما كنت رئيسًا لمعسكر جامعة إبراهيم، جامعة عين شمس حاليًا، كان أحد المعسكرات التى تحارب الإنجليز، وكان تابعًا للتيار الإسلامي وكنت رئيسه آنذاك.

قاطعه «فؤاد»..

- في الحقيقة راجعت تلك المعلومة من مصادر عدة بعيدة حتى عن مصادركم ووجدت ذلك صحيحًا، وكنت أستغرب لماذا يطمس هذا الجزء الوطني من تاريخك، مع الاختلاف على الكثير من تاريخك لكن هذة الصفحة ناصعة البياض.

رد «مجدي» بشيء من الامتعاض:

- كل تاريخي وطني، وكل صفحاتي ناصعة البياض يا «فؤاد»

رد «مجدي»..

ـ ذلك من وجهة نظرك، مثلما أرى أنا فى بعض الأمور قمة الفهم المتحرر وترونها أنتم قمة السفور، معتقداتنا تحكم أفعالنا، والمعتقدات ليست واحدة.

تدخل «وائل»:

ـ نرجع لسابق اتفاقنا، الأمر ليس جدالا قدر ما هو تعرف على سيرة الآخر منه نفسه، ويكفي أننا اتفقنا على أمر جهاده ضد الإنجليز ذلك أمر صحي.

عاد «مجدي» للمواصلة..

ـ دائمًا للتاريخ أكثر من رواية، أكذبها ما يكتبها المنتصر، أو الحاكم وقتها.

رد «فؤاد»..

ـ إذن ما ستقوله هو أحد رواياته من وجهة نظرك، وليس بالضرورة هو الصحيح أو الحق..

«مجدي»..

ـ لن أكذبكم فى الأحداث، فكل شيء مثبت فى التاريخ ولن يمحى، ولست فى حاجة لكي أكذب، فلن يعود ما فات لقد قضيت سنوات السجون، ومررت بالعذاب، شهادتي لن تعيد لي سنواتى، ولن تمنحني وسامًا عندكم، أما كونه هو الصحيح أم لا، فهذه تحددها أفكارنا، سأقول ماحدث لكن تقييمه سيكون عائدًا على أفكارنا كما قلت.

ـ الحادثة الأهم الثانية هى قضية ١٩٥٤م، التى حُكِم عليَّ فيها بالإعدام شنقًا من قبل «حاشية» جمال عبد الناصر.

تدخل هنا «فرنسا»..

ـ لا لا ياسيدنا، إلى هنا تتوقف، «عبد الناصر» بطلنا وقائدنا العظيم، أنا تربيت على صورته الكبيرة فى بيتنا.

«مجدي»..

ـ ليس معنى صورته الكبيرة فى بيتكم أنه ليس بطاغية، وحتى لا يقاطعنى أحد منكم على الأقل من وجهة نظري، دعونا نتجاوز تصنيف عبد الناصر، لقد أفضى إلى ما قدَّم وشهادتنا من عدمها لن تغير في شيء، المهم القضية التى حكم عليَّ فيها بالإعدام، كانت قضية إيواء وتهريب، اللواء «عبد المنعم عبد الرؤوف».

لم أنكر هذا العمل العظيم ولن أنكره اليوم، لقد قمت بتهريبه وإيوائه عندي بالفعل، وكان ذلك الحكم أهم أوسمتي، وكنت أتمناه أن يظل إعدامًا للنهاية، لكنه خفف إلى مؤبد، قضيت فى السجن، ٢٥ عامًا ثم خرجت بعدها فى عهد السادات، كي أصبح سجينًا، عهد «عبد الناصر» وعهد السادات في أوله.

قاطعه «أنس»..

ـ نريد أن نعرف ما هي ملابسات تلك القضية ومن هو اللواء «عبد المنعم عبد الرؤوف»؟

«مجدي» سأروي لكم..

ـ اللواء، «عبد المنعم» أحد أهم الضباط الأحرار وأبرزهم، له مذكرات خاصة «اسمها» أرغمت الملك على التنحي فهو القائد الذي حاصر قصر رأس التين وأرغم الملك على التنحي والانسحاب، وله بطولات كثيرة قبل ذلك المجال لن يسع سردها، بعد نجاح الثورة أو حركة الضباط الأحرار، أراد عبد الناصر أن يتخلص من كل رجالها نجيب، وعبد المنعم... إلخ ليخلوا الأمر له وحده، فادَّعى أن «عبد المنعم» كان يخطط للانقلاب على حركة الضباط بثورة إسلامية، فأراد القبض عليه فآويته عندي.

تدخل.. «فؤاد»..

ـ أحب أن أتدخل هنا، كنتم تريدون أن تركبوا الثورة كما فعلتم فى ثورتنا الماضية، وتنسبوها لأنفسكم، فأجهض «عبد الناصر» هذا المخطط، لست ناصريًّا، لكن هذه هي الحقيقية.

«مجدي»..

ـ هب أن ذلك حقيقي، لماذا لم يعترض «عبد الناصر» على اللواء «عبدالمنعم من البداية وهو يعلم فكره الإسلامي، عبد الناصر كان يعمل لمشروعه وليس لمشروع وطني، كان يعمل لمشروع «ناصري» فقود كل أصدقائه وتخلص منهم، وللتأكيد على حديثي هل تعلم أن عبد الناصر، أقسم على البيعة للتنظيم السري التابع للجماعة، ثم بعدها أنشأ تنظيم الضباط الأحرار وأخذ يسأل الضباط أنتم أحرار، أم من التنظيم الآخر.

رد «فؤاد»..

ـ هذا يدعم رأيي يا سيدي عبد الناصر تحرر منكم وحرر مصر، لا ينبغي أن تذوب مصر داخل جماعة، مصر أكبر، ثم إنكم كنتم تعملون لمشروعكم الخاص وليس لمشروع وطني، في مشروعكم تذوب الأوطان، أو لست قائل عبارة «طز في الوطن».

«مجدي»..

ـ لا بل ما قلته يؤكد صدق حديثي، عبد الناصر، ليس له سوى مصلحته وما يحققها، عندما وجدنا سبيلا لذلك انضم لنا، وخان العهد معنا، وعندما رأى أنَّ وجوده معنا يقود سلطانه خرج وفجر في الخصومة، أعدم السيد «قطب» وآخرين، وانقلب على الضباط الأحرار، ارجع لمذكرات «محمد نجيب، وعبد المنعم، وجمال حماد، والصاغ لبيب وغيرهم، من حكم عليه بالإعدام، ومن أقامه جبريًّا ومن عزله من الجيش، فضلا عمَّا كان فى سجونه..

«فؤاد»..

ـ أرى فى ذلك دهاءً ومكرًا من قائد عسكري، وكونه استعملكم ثم تركَكم يدل على ذكاء عنده، واعذرني سذاجة منكم.

ـ لا، سمِّ الأمور بأسمائها، الخيانة أبدًا ماكانت ذكاءً.

«فؤاد»..

ـ هذا ما لا تستطيعون إدراكه، أن السياسية تختلف عن جلسات مساجدكم، السياسية فيها المكر والمصالح، وكلها متغيرات، أنتم تنتهكون قدسية الدين بها، الدين به ثوابت وأخلاق، والسياسية خداع ومكر ومصالح.

«مجدي»..

ـ ليست سذاجة منا نحن نريد أن نلعبها بقواعدنا الإسلامية، نريد أن نصلح الدنيا بالدين..

«فؤاد»..

ـ الدنيا لن تصلح إلا بقوانينها، التى تعتمد على القانون الوضعي، أمة الآخرة لها الدين، الدولة تحتوى على أصحاب العقائد المختلفة والميول المختلفة، لماذا نجبر المسيحي أن يحتكم للإسلام أو يُحكم به وإن كان فيه العدل.

«مجدي»..

ـ هذا كلام خاطئ، في حكم الإسلام يحكم أهل الكتاب بما أنزل عليهم في أحوالهم الخاصة مثل المعاملات والزواج والميراث وغيره، الإسلام لا يطبق إلا على أهله، ثم إن الشريعة الإسلامية بها تفاصيل الحياة العادية والأحكام لكل شيء.

«فؤاد»..

ـ ولماذا كل هذا التشتت، يحكمون بدينهم في أمور وأمور أخرى لا، وهذا سيكون لكل دين، نحن في دولة لابد أن نخضع جميعنا لقانون واحد، هذا

هو العدل المطلق ولا أرى أنَّ الإسلام أو أى دين يرفض ذلك، وحتى لا يأخذنا الحديث لمنحى جانبي، لي سؤال لم تجب عليه أن الأوطان في عرفكم لا وجود لها تحت مسمى الخلافة، وحقيقة قولك «طز»

«مجدي»..

ـ نعم أنا قلت ذلك، وإن كنت أعنى المعنى لكن اللفظ خاننى التعبير بها، النبي عندما كان اختياره بين أن يظل فى مكة أو يهاجر بدينه، اختار الدين عن وطنه، لكنه أيضًا قال لمكة إنك لأحب البلاد إليَّ، السؤال وقتها من الصحفي أننى لو خيرت مثل هذا الخيار ماذا سأختار، فقلت له الدين أولى، فأعاد على الأمر بطريقة استفزازية ليستنطق مني أمرًا ما، فقال لى ووطنك؟ قلت دينى، فقال وطنك، قلت أقول لك دينى، عند ديني، «طز فى وطنى» فذكر هذه الكلمة ولم يذكر كل الحوار كالذي يقطع الآية الكريمة فيقول «ولا تقربوا الصلاة... لكن الله قال بعدها وأنتم سكارى.

شاركهم «أنس الحوار»..

فلنتجاوز عن هذا الآن، يا سيدنا وتقص علينا باقي سيرتك

ـ نعم.. سأكمل، تقلدت بعد خروجي من السجن فى عهد السادات عدة مسؤوليات بالجماعة، وكانت الفترة الأفضل على الحركات الإسلامية وقتها، لكنها لم تكن لحب السادات فينا، لكنها كانت خطته كي يجابه بنا اليسار والشيوعيين الذين قوي صوتهم فى هذه الأثناء، فترك السادات للحركات الإسلامية الحرية.

قال «فؤاد»..

ـ فكانت نهايته على أيديكم.

«مجدي»..

ـ من المفترض أنك رجل مثقف تعرف، أن ثمة فرق بين جماعات الجهاد وجماعتنا التي أسسها البنا.

«فؤاد»..

ـ أعرف أن جميعها انبثق منكم وأنتم النواة لكل الجماعات.

«مجدي»..

ـ أنت تحاسبنا على أفراد انشقت عن طريقنا الإصلاحي، ووجدت فى حمل السلاح الحل؟ نحن هاجمناهم قبل أى أحد، نحن لنا ما نفعله وما نعتقده.

تدخل «شرقاوي»

ليتكم كنتم مثلهم، طريقكم الإصلاحي المائع هو من أضعف الحركة الإسلامية ككل، ليس لكم أى شيء يذكر من سنوات طويلة فى العمل، تفتخرون بتضحياتكم التي لم تتعد أنكم إما تحت أعواد المشانق أو منسيون داخل سجونهم.

«مجدي»

ـ سلاحكم هو من حقق تقدُّمًا... الناس أصبحت تكره كل ماهو إسلامي من أفعالكم، أبدًا لم نأت لمحاربة أو قتل المخالف، بل للدعوة بالحكمة.

«شرقاوي»

ـ لم أقل قتل المخالف، أو محاربته، إنما أقصد بمن يقتلنا ويصد عن سبيل الله وحب قتاله، هذا هو رأي الدين فيهم.

«مجدي»

سأكمل، حتى لا يتحول الأمر لجدال لا طائل من ورائه في أمور قد قتلت بحثًا..

ثم كان عهد الرئس السابق، توالت الأحداث، حتى وصل الأمر للقضية الشهيرة، «قضية التنظيم الدولي للإخوان» والتى كانت تهمتى فيها أننى رئيس ذلك التنظيم، وحكم عليَّ فيها بخمس سنوات، قضيتها، وفي هذه المرحلة، وهذا العصر قضية جديدة، أننى حرضت على قتل المتظاهرين

الذين تظاهروا ضدنا أمام مكتب الإرشاد، وهذة القضية الأغرب حيث إننا الطرف المعتدى عليه فى مقرِّه، والأمر الآخر أننى وقتها كنت تنحيت جانبًا عن المشهد السياسي لكبر سنى ووهنى ولأفسح المجال للشباب.

«وائل»..

ـ نختلف أو نتفق معك، لكنك صاحب جلد وقوة تحمل من أين لك هذا؟ وأنا مثلا لم أتعد الأشهر هنا ولا أتحمل وكسرت عزيمتى وما عدت قادرًا.

«مجدي»..

أنا مثلك يا «وائل» أحب الحرية والبراح، وأحب الحياة، الفارق الوحيد، هو قوة العقيدة التي ننتمى لها، وليست قوانا الشخصية، أنا مؤمن بأني أعمل في سبيل الله، وأن غاية ذلك الجنة، هذا الاعتقاد يهوِّن كل الأمور علي أن أتحمل من أجل الجنة، ومن أجل أنني أعمل من أجل الله.

«فؤاد»..

ـ أتفق معك فى ذلك، حتى من يستخدمون السلاح من الإسلاميين، كتبت عنهم مقالا ذات يوم، أنهم من أصعب الفئات التى تواجهها الدولة، حيث أن العقيدة هى دافعهم، بغض النظر عن أن ذلك الفهم خطأ، لكنه بداخلهم، فما أسهل الموت عليهم من أجل الوصول إلى مبتغاهم الشهادة، لذلك كنت دومًا أدعو للحوار معهم من جانب الأزهر، فالانتصار عليهم بتصحيح مفاهيمهم وليس قتالهم، القتال يجدى مع المأجور أو المرتزقه، فغايتهم مكاسب دنيوية، من حياة أفضل وليس من أجل الموت، أصعب القتال قتال صاحب العقيدة الدينية، في كل الأديان سيان، فهناك المسيحي الذي يقاتل أيضا وفي فهمه الدفاع عن الدين ويرى فى شهادته الجنة، واليهودى وغيرهم، أولئك القوم لن يجدى معهم سوى تغير الفكرة أولا.

هناك أمر أخير... على الرغم من معارضتي الدائمة لكل الحكام وأى مظهر للاستبداد، إلا أننى لو كنت حاكمًا، لعملت أيضًا على تفكيك جماعتكم، ولكن بالتأكيد بطرق مختلفة، أمر مزعج لأي حاكم أن تكون فئة في دولته تعمل تحت الأرض بل وتستعذب ذلك، أمركم دائمًا يدعو للريبة وإن صلحت نواياكم، وأمركم الأخير كان الأغرب، كيف بجماعة عاشت كل هذة المدة فى الخفاء والظلام أول ما تخرج، تكون للحكم، عندما نخرج من حجرة مظلمة إلى ضوء مفاجئ نصاب ببعض العمى لوقت، كيف بكم وقت عماكم تقودون، لا أعلم، هل استعجالكم لركوب المشهد أدى إلى لذلك لأمر تنتظرونه منذ سنوات طويلة، أم عدم حكمة سياسية وقراءة للمشهد لازمتكم طيلة عهود طويلة، أرى أنكم كنتم تحتاجون لتأهيل قبل ذلك أوله تأهيل نفسي، إنكم تنطلقون لأول مرة دون سجان يطاردكم أو عدو يتربص بكم.

«مجدي»..

ـ نعم «يافؤاد». كلامك به بعض الحق، جانبنا الصواب ذلك أننا بشر، وأخطأنا تقدير بعض الأمور، لكنى لا أظن أن ذلك حسابه ذلك الثمن الباهظ من أرواحنا وحريتنا.

❋ ❋ ❋

ما إن انتهى اللواء «علاء بكري» من قراءة الورقة، حتى طواها ووضعها بين مكاتباته، ورفع رأسه إلى «هشام».. قائلا:

ـ سأعتبر نفسي لم أقرأ شيئًا ولم أتلق منك شيئًا.

رد «هشام»..

ـ أرجوك ياسيادة اللواء الأمر قد جاء بعد تفكير طويل، والقرار ليس وليد اللحظة، وأنا قد أبليت بلاءً حسنًا، وأود أن أبتعد فى الوقت القادم.

رد اللواء.. بشيء من الحدة والحسم

ـ هل للمحارب من راحة، هل للجندى من انسحاب فى عز المعركة؟ أربأ بك أن تنسحب وقت الصمود، عرفتك دائمًا بالرجولة والتحمل لا لا، لست من تنسحب فى الميدان.

ـ أنا لا أنسحب أنا أديت كل ما كلفت به سابقًا وبكل كفاءة.

اللواء..

ـ المعركة ما زالت مستمرة، البلد لا تستجدي من يزول عنها، الحق لا يحتاجنا لنصرته، بل لشرف الانتساب له، ما أيسر أن أقبل هذه الاستقالة وأرفعها للوزير، لكنني لا أرضى لك هذا وأنت من سليل أبطال، هل علم والدك بهذا ووافق عليه هل وافق حماك؟

هشام...

ـ لا لم أعلمهم، أعلم رفضهم المسبق رفعت عن نفسي حرج لومهما، وكنت أريد أن أضعهما أمام الأمر الواقع..

اللواء...

ـ وهل توقعت أن أكون أقل منهم حدة أو قبولا لفعلك..

هشام..

ـ لا، كنت أعلم ما سأجده منك، وطيلة الأيام السابقة كنت أستحضر الردود التى سأقابلك بها.

اللواء..

ـ بل اسمع أنت مني، لا أحتاج إلى أية مبرارت منك، فكلها عندى غير مقبولة، إن أردت فعليك بالتوجه للوزير مباشرة، أنا حزين للغاية أن تكون تلك عزيمتك، حزين أن يكون من الأساس نقاش في أن تظل فى خدمة وطنك، ما كنت أنتظر منك هذا.

هشام..

ـ أرجوك يا سيادة اللواء، لا تزيد حملي، حديثك فوق طاقتي، تعلم ويعلم الجميع مدى خدمتي للوطن ومدى تضحياتى، ما جئت بهذا الطلب إلا بعدما شعرت بتشتت ذهني، وأخشى قلة جهدي وما عرف عني، أنا جئت إليك بعد تفكير طويل، ومع ذلك حديثك أوجعني، أنا لا أساوم أبدًا على خدمتى للوطن ولا أحتاج إلى نقاش فى ذلك، لكن أتمنى أيضًا أن تراعى نفسي.

اللواء..

ـ حيثياتك كلها مردود عليها، وأنت أكبر من أن أحدثك عن صعوبة الوضع الذي يتطلب منا إجراءات استثنائية، تعلم أنني كنت مسئول ملف حقوق الإنسان داخل الوزارة وتعلم أيضا مدى دافعي عن ذلك ومحاربتي لكل خروقات بعض الزملاء، لكن الأمر الآن حالة حرب وحالة أن تكون البلد أو لا تكون، ومع ذلك سأحاول رفع ذلك عنك ما استطعت، ما رأيك فى أن تتحول إلى قطاع مداهمات، الجماعات المسلحة، والتى تعلن عن كل عملياتها داخل العاصمة وخارجها على الحدود، أظن مواجهة هؤلاء لا يحتاج إلى تبريرات ولا يوجد أي شبهة فى إجرامهم وتعديهم.

هشام..

ـ ذلك أكثر تقبلا، لاسيما أن أقوم بالثأر الذي تمنيته منهم على عمليتهم الخسيسة تجاه زملائنا الأبطال والانتقام من خستهم، لكن أريد منك وعد، عندما يعيننا الله على تطهير البلاد منهم وعودة الأمان لوطننا، أن تقبل اعتذاري، دون أن تحملني أية ضغوط، بالفعل أود بعض الراحة، لكنى أتمناها برضا منكم بل وتكريمًا على ما قضيته، لأخرج براحة نفسية.

اللواء..

ـ ممم، أعدك، لكن لابد أن تفي بعهدك أولا تطهير البلاد من دنس أولئك الجرذان الناطقة..

هشام..

ـ أعدك، بل ذلك مطلبي وغايتي..

اللواء..

ـ سيتصل بك اللواء «مهدي» الليلة، فهناك عملية هامة أتمنى أن تبلي فيها بلاءً حسنًا.

هشام..

ـ بهذه السرعة..

اللواء..

ـ بل كان الأمر أيضا منذ وقت، قد طلبك اللواء «مهدي» وقد كنت رفضت ذلك، أما وإن أصبح ذلك هو الأفضل لك فلتكن موافقتي، وخاصة أيضًا أنهم موكل إليهم مهام جسام هذه المرحلة..

* * *



(١٠)

«ملعونة تلك السياسة..ملعونة كل الأيدلوجيات.. ملعونة الاتجاهات والتيارات التي منعتنا أن نلتقي إلا في غياهب السجون، منعتنا أن نلتقي إلا عند الوداع»..



على غير عادة القضاء وحباله الطويلة كان الأمر مع شرقاوي سريعًا للغاية ودون مقدمات وإجراءات روتينية معروفة أُنشئت محكمة الإرهاب لسرعة إجراءات محاكمة من تورطوا في قضايا الإرهاب لتحقيق العدالة الناجزة ولكي يهدأ الرأي العام وتنطفئ نار غضب أهالي الضحايا.

استيقظ نزلاء زنزانة ثلاثين في وقت غير معتاد من الصباح على صوت الحرس يفتحون عليهم ليأخذوا «شرقاوي»على غفلة إن كان الأمر كذلك على «شرقاوي»ورفاقه لكنه لم يكن كذلك على كل أهل البلد فقد أعلنوا قبلها في التلفاز أن المحاكمة ستذاع على الشاشات لكن أنى لهؤلاء النزلاء أن يعرفوا ذلك.

ما إن بدأت الجلسة الأولى حتى توالت الجلسات لمدة خمسة أيام متواصلة لتنتهي بحكم شهد هتافًا حارًّا من كل الحاضرين قد غطى على صوت الحسبنة الوحيد الخارج من زوجته، وصوت فرحتهم قد طغى على صوت نحيبها عندما أعلن القاضي في فخر وزهو حكم الإعدام شنقًا على شرقاوي.

على الرغم من كل الإجراءات الاستثنائية في المحاكمة العاجلة إلا أنهم تركوا حق نقض الحكم وهو الخيط الذي مسك بطرفه محامي شبارة وصار عليه عقب إعلان حكم الإعدام ليعود «شرقاوي» إلى (ثلاثين) بزي مختلف عاد بالأحمر مباشرة وكأنَّ الأمر معد، في تقليد غير معمول به من قبل مع المحكوم عليهم بالإعدام، حيث إنهم ينقلون لعنابر أخرى،

لكنهم أرسلوه بزيِّه الجديد ليكون أيضًا رسالة لمن معه أنه ليس إلا يد من حديد بعد اليوم.

عاد «شرقاوي» برباطة جأش وتحمل معتاد عليه لم تهزه تلك الكلمة المخيفة، عاد متماسكًا أو يتكلف ذلك بينما هم تلقوه بصدمة وإن كانت كل الظروف كانت تؤدي إلى ذلك الحكم، لكنَّ الأحمر له خشية خاصة عندما يكون واقعًا.

ليثبتهم هو باغتهم بقوله:

ـ «ستكون شهادة إن شاء الله ومنحة ربانية كنت أنتظرها، فقط زوجتي وأولادي، وأن تذكروني بخير عند جماعاتكم وأهلكم وأنتم فقط من علمتم بحقيقتي وأنا سأذكر مظالمكم عند ربي.

مرت أيام وأيام وأيام ـ بعضها يشبه بعض أفعالها لا تختلف عما سبق ـ إلا قلوب تتقرب أكثر ويأس يتمكن من البعض أكثر وصحة تتدهور لطاعن في السن يأبى أن يشتكي أو يُظهر ضعفًا. الجديد فيها قبول الطعن وتحديد موعد لجلسته ـ والتجديد (لفؤاد) لمدة أخرى حتي حين، وعدم عرض «وائل» على النيابة من الأساس وهو ما يعني التجديد التلقائي وتحديد جلسة «لأنس»، و«مجدي للنظر» في قضيتهم الانضمام لجماعة محظورة.

غير ذلك لا جديد، ليل يسلمهم للنهار ونهار يسلمهم لليل، انتهت قصص كثيرة ـ ملوا من الحديث عن السياسة، عرفوا كل شيء عن بعضهم لا شيء لديهم سوى انتظار الفرج وانتظار الفرج من السجن عقاب فوق العقاب.

* * *

ليلة طويلة ومزدحمة بالأفكار كيف سيكون نهارها يا ترى؟

هل سيستطيع رؤية زوجته وابنته الصغيرة؟ وهل رؤيتهم راحة أو عدمها الأفضل؟

ـ لابد أن أراهم ذلك الأفضل وخير ما سيتأتى به الغد لي وإن كان الغد يظن أنه سيأتي لي بكارثة، لم يعلم أنني ما عدت أخشى من النوائب ذلك أنني لم أر خيرًا قط، لم أعد أشتهي الحلو، فلقد استعذبت تذوق المر وضبطت ذائقتي على طعمه، أصبح الألم صديقي الوفي الذي يأبى أن يتركني لراحة زائلة غير دائمة.

لا لا.. لا أريد أن يروني على هذه الحالة، لا ينبغي أن يفجعوا في هذه المرة.

بهندام الموت الاحمرار ينبغي ألا أطعن بمشهد زوجتي وهي تُبعَد عنى بقوة بأيدي أولئك الذين يحملون على أكتافهم نجومًا وأشرطة.

كان ذلك حديث نفسه المتردد والمتخبط طيلة هذه الليلة التي أطال من بعدها عليه انتظاره لصباحها.

الجميع من حوله نيام إلا هو قد انتشل نفسه من بينهم ليحيا مع وسواسه وقلقه بعد تململ طويل على فراشه وضع نفسه في ركن وجلس القرفصاء منكسًا رأسه بين يديه يسترجع أيامًا متشابهة في الألم.

كان «فؤاد» يراقبه من طرف خفي ليس فقط في هذه الليلة، بل طوال اليوم، فهو يستغرب حاله وانسحابه الدائم من أحاديثهم ـ نعم أمره غدًا جلل، لكنه متى كان يهتم بأي جلل ينتظره، دائمًا قوي صلب لا يبالي.

ما زال «فؤاد» يمنع عن نفسه النوم مترددًا بين أن ينهض لصاحبه وبين أن يتركه لحاله لا سيما بعدما ألحَّ عليه بالسؤال طوال اليوم عما بداخله وهو يأبى أن يتكلم..

ما زال هو كذلك.. حتى وجد تلك الدمعتين اللاتين تسربا غفوة من عيني «شرقاوي»وهو يجاهد حبسها رآهما في لحظة قد رفع فيها صاحبه رأسه ليمحهما بيديه.

لم يجد بُدًّا في هذا الوقت إلا أن ينهض لصاحبه ليكون بجواره..

بتلطف جثى بجواره ووضع يده على كتفه: ـ

ـ غزيرة تلك الدموع يا صاحبي، لم أعهدها عليك من قبل، ما بك؟ ـ هل تخشى تأييد الحكم غدًا أم ماذا؟

وكأن رؤية «فؤاد» لصديقه وهو على هذه الحالة وسؤاله له بداية لحظة انهيار كان دائمًا ما يتفادها «شرقاوي» بقوة وتماسك مفتعل فإذا بجسده النحيل ينتفض وكأن بداخله أزيزًا كأزيز المرجل فانفجرتا عيناه بما كان يحبس لسنوات: ـ

وبصوت مختلط بالنحيب: ـ

ـ لا يا صديقي لا أخشى تأييد الحكم، ولا أتوقع غير تأييده، بل أتمنى تعجيل التنفيذ ـ أنا فقط حزين على حالى، على حياة لم أعشها، على لعنات

تصب علي ليل نهار لا أستحقها، على استقرار لم أعشه يومًا، عن فرحة لم تزرني يومًا، حزين على زوجة توبَّخ من أجلي، وابنة لم تسعد بحناني في حياتي يومًا، وعن عارٍ سيظل يلاحقها بعد مماتي دومًا.

أتمنى أن أراهما غدًا في قاعة المحكمة كي تقرَّ عيني بهما للمرة الأخيرة، وأتمنَّى أيضًا أن يمنعوهما من الدخول حتى لا يرونني على تلك الحالة.

أنا متعب للغاية يا صديقي، لا أعلم صوابي من خطئي لأول مرة يلتبس عليَّ الأمر، هل ثمة طريق كان عليَّ أن أتخذه أو طريق كان عليَّ أن أتفاداه، أنا لا أستحق كل هذا القهر وكل هذه البغضاء من الشعب ـ هل ذقت يومًا ألا يحبك أحد سوى دائرتك الصغيرة ـ أو أن يرى الكثير في موتك الثأر لهم؟ أتألم لمجرد التخيل أنَّ أحدًا لن يصلي عليَّ ولن يترحم عليَّ جهرًا، عشت في وجع وسأموت بسيرة ملعونة.

علا هياجه وبكاؤه، وما كان من (فؤاد) إلا أن ينكسر عليه بضمة بين ذراعيه بتأثر وعطف تلقائي وهو يشاطره الدموع والألم قائلًا:

ملعونة تلك السياسة ـ ملعونة كل الأيدلوجيات ـ ملعونة الاتجاهات والتيارات التي منعتنا أن نلتقي إلا في غياهب السجون، منعتنا أن نلتقي إلا عند الوادع ونكتشف وقتها أننا لسنا أعداء بل إننا الإخوة الذين يبحثون عن أخيهم المفقود في الجب.

ابتعد قليلًا (فؤاد) عن صدره محاولًا الاستدراك قائلًا:

ـ لي عندك طلب لا تخذلني فيه أبدًا إن كان لي عندك قدر:

بإيماء رأسه المنكس كإشارة على الموافقة رد «شرقاوي»



واصل (فؤاد):

ـ أتمنى غدًا أن تغير أسلوبك ليس ليتخفف الحكم، بل ليعلم كل الشعب حقيقتك حتى وإن أيَّدوا الحكم لابد أن تترك انطباعًا طيبًا، تحدث معهم كما تتحدث معي اليوم، كفاك يا أخي تحملًا وتكلفًا في الغلظة، أنت لست كذلك تحدث بذاتك هذه فقط، على الأقل أن تعلم عائلات الشهداء من الشرطة، إنك قد قُتلت قبل مقتلهم مئات المرات، وأنك لست المسئول عن كل هذا، كان لك بعض الخطأ لكن الخطايا التي ارتكبت في حقك أكبر، لا بد أن يعلموا بأنك لست الشيطان الرجيم الذي يصوره الإعلام إن كنت لست بالملاك البريء، أنت إنسان قد تكون أخطاؤه أقل من بعض من يحاسبه.

❋ ❋ ❋



اليوم عملية ليلية أخرى، لكنها مختلفة الأثر على نفس «هشام» على عكس العمليات السابقة، يستعد من أول اليوم، يمني نفسه بمصارع أولئك الإرهابيين، على عكس السابق أيضًا، نفسه مطمئنة بل متحفزة دون تحفظ، مشحونة لأقصى درجة، يشعر بشعور لم يأته منذ وقت طويل بإقباله على العمل وإحساسه بالشرف أن يكون ضمن تلك الكتيبة المختارة لهذه المهمة، الأمر الذي عاد على زوجته بالفرحة أن تجده على هذه الحالة وذلك التأهب، وإن كانت لا تعلم شيئًا عن تلك المهمة المنتظرة حفاظًا منه على السرية وعدم شعورها بأي قلق كعادته حتى فى المهمات السابقة رغم أنها أبسط من تلك القادمة، مهمة تنتظر كل قيادات الداخلية ليس فقط الرجال القائمون بها، فمنذ أن أتت المعلومات الاستخبارية، بأن أحد تشكيلات سيناء الإرهابية يتواجد فى شقة فى التجمع الخامس، لتخطيط لعملية كبرى فى داخل القاهرة، والنفوس متأهبة خاصة وأن المجموعة تحتوى على أكبر قيادات الجماعة المسلحة.

تجمعت القوة فى تأهب شديد، قوة تجمع بين رجال العمليات الخاصة وضباط من القسم التابع له محل تواجد العناصر الإرهابية التجمع الخامس، وجنود من الأمن المركزي ذوى السمات الخاصة.

أطبق الليل سكونه على الجميع، الأجساد نائمة مطمئنة، إلا رجال عملية التجمع، الحذر رفيقهم، والاستعداد دأبهم..

تحركت القوة فى ثبات وإقدام نحو الهدف، القيادات فى مكاتبها تنتظر الأخبار ويتابعون عبر الاسلكي، مشاهد ذبح زملائهم تمر على خواطر كل رجال الحملة، تزيد من قبضة أيديهم على أسلحتهم، الخزائن معمرة، تريد أن تنفك في أجسادهم، وسط كل هذا، تحذير من القادة للضباط بضبط النفس، وأن الأفضل أن يتم القبض على المجموعة دون قتلهم، ليكون الخيط الذي يوصل لباقي العناصر باعترافاتهم..

صعدت القوة السلالام، وصلوا للشقة المحددة، وقفت القوة أمامهم بقلوب ثائرة تنتظر إشارة القائد «هشام» بالاقتحام..

وقوف لثوانٍ لالتقاط الأنفاس، أعقبه اقتحام ضارٍ بعد إشارة من القائد، اقتحام بدأ بمجموعة رجال العمليات الخاصة ذوى السمات الخاصة بالانقضاض على الباب بمعداتهم الثقيلة وبضربة معدة من قبل لتكون هى فقط التى تأتي بمصرع الباب، ليتهاوى أمامهم ليكونوا بداخل الشقة كالموج الهادر، أو كإعصار هبَّ دون نذير، ليجدوا أمامهم هدفهم، فيأمر «هشام» رجاله بعدم الضرب، حيث تسليمهم أحياء، بالإضافة للمتفجرات التى تملأ المسكن معرضة للانفجار مع التحامها بأي نيران أو شظايا، تم محاصرة ثمانيتهم فى عجالة، فإذا بنظرة من كبير لهم أو حركة بطرف عينيه متفق عليها من قبل إذا ما كان أى اقتحام، نظرة أعطت إشارة لأحدهم أن يضغط على ذر ما، لتتوالى الانفجارات الشديدة تباعًا من شدة حجم المفرقعات المتواجدة بداخل المنزل، انفجارات اهتزَّ لها كل التجمع الخامس، بل سمع دويها فى المناطق المجاورة، ليقوم الجميع من ثباته العميق على إثرها وعلى خبر أن بلدهم قد فقدت رجالا من أشجع وأقوى وأعظم رجالها، قد قضوا نحبهم ليمنعوا عملية قد تكون الأكبر والأعظم ضررًا للبلاد، ليكون نجاحهم فى صد هذا العدوان هو خسارة أرواحهم..

* * *

تأيد حكم الإعدام على «شرقاوي» كان ذلك الخبر الأكثر انتشارًا في كل الصحف القومية والأكثر مناقشة في برامج التوك شو التي استضافت الكثير من أهالي الضحايا لكل العمليات المنسوبة لشبارة حتى يدلوا برأيهم عن الحكم وإنجاز المحكمة.

فرحة وتشفٍ ورضا، كانت تلك أكثر مشاعر المعلقين على الحكم وأكثر عامة الناس، بينما الصمت يطبق على زنزانة (ثلاثين) والعقاب كله، النوم لم يزر بيت «شرقاوي» رغم حلول الليل تحتضن مريم ابنتها تتذكر الأيام الخوالي، تتذكر حادث القطار، تتذكر كيف كان لها عمر جديد قد جعل الله من شبارة سببًا له تتذكر كيف كانت أيامهما البائسة وكيف كانت لياليهما، شريط حياتها الكامل يمر أمام عينيها مع زوجها الذي قتلت فيه أكثر من مرة، قتلت فيه عند كل اعتقال وعندما سمعت حكم الإعدام لأول مرة وعندما أيد الحكم، وعندما سمعت سبابه على كل برامج التلفاز، وعندما رأت الفرحة في قلوب الناس على حكم زوجها، وعندما اعتزلت الناس هربًا من تلاسنهم وسبابهم.

«شرقاوي»..

يتذكر عمرًا قد أعلن عن قرب انتهائه، وهو لم يبدأه من الأساس، طرق لم يخترها يحاسب عليها، زوجة أحبها ولم تعطه الحياة أيامًا كي يكون

بجوارها، ابنة ستطاردها وصمات العار لا لشيء سوى لأنه والدها، حياة لم يحيها وآخرة يخشى ألا تكون له، لتنفجر عيناه بدموع كرهت أن تظل حبيسة، وصوت يخرج من أعماقه يهز كل أركان العقاب، يشق به سكون الليل كتأوه أسد جريح في غابة خالية، أخذ ينادي بكل قوة.

ـ أنا لست إرهابيًّا.. أنا لم أرهبكم يومًا، أنا أرقى من سجاني وأعدل من قاضيكم، لست شيطان أرضكم، ولستم بملائكته، لكم كل احتقاراتي ولعناتي عجلوا بحكمكم قد سئمت رائحتكم النتنة، عجلوا بحكمكم كي تصنعوا بطولة على جثتي، وتشفوا صدوركم بانتصار واهٍ، سأظل رمزًا لظلمكم، وشاهد قبر ضمائركم.

* * *

عادت الرؤوس منكسة كما في الأيام الأولى..

«شرقاوي» أصبح يؤثر العزلة عن الجماعة، يجتهد في العبادة لا يعرف في أي وقت سيكون التنفيذ يترقب كل اقتراب للحرس علها لحظات النهاية.

«مجدي» يتمكن منه المرض خاصة بعد رفض دخول الدواء له.

«وائل» يبحث عن طريق للخروج لاسيما بعد مرور فرص العرض على النيابة التي كان يأمل فيها بالكثير.

«أنس» في ملكوته يفكر في زوجته وابنه.

«فؤاد» يراجع حديثه الأخير مع زوجته، هل كان عليه أن يهدِّئ اللعب كما قالت له؟ هل السجن خدم قضيته ومبادءه؟ هل كان الحل الوحيد هو السجن كي يكون صابرًا على مبادئه.

أراد (فؤاد) أن يكسر ملل جلستهم ويغير من صمت القبور الذي يعتريهم، فنادى فيهم هيا بنا نلعب، نظر إليه الجميع في استغراب فأعاد عليهم مقولته، تعالوا حولي، هذه المرة لم يستجب أحد، قام ومر عليهم يداعبهم حتى قاموا معه على استحياء ماذا تريد منا، سنلعب.

نعم سنلعب... سأطلب من كل فرد منكم طلبًا في أذنه بشرط ألا يخبر الآخر به، ويقوم بتنفيذه، ومن سينفذ أولا سيكون الفائز، بدأ يذهب يميل على كل أذن يخبر صاحبه بطلبه وهو طلب واحد أن يأخذ كل وسادات الزنزانة ويصنع بها دائرة، أعطى الطلب لكل فرد.

ثم رجع للخلف وقال لهم ابدءوا نفذوا الأوامر، سادت حالة من الهرج في الزنزانة، الكل يجري نحو الوسادات، فرنسا يدفع الآخرين، ووائل يستغل لياقته هو وأنس حتى (مجدي) رغم حرصه وتعبه شاركهم على استحياء أخذ وسادة واحدة ولم يستطع أن يأخذ الباقي.

سادت حالة من الضحك قليلًا والمراوغة والشد والجذب، مر الوقت المحدد ولم ينفذ أحد المطلب ثم قال لهم (فؤاد) انتهى الوقت هيا اجلسوا، لينبئهم أن الطلب كان واحدًا عند الكل هو جمع وسادات الزنزانة وعمل دائرة بها.

ليعلق..

- هذا ما حدث معنا في واقعنا - كلنا تقريبًا نريد نفس الطلب أو الأماني لكننا نظن أن الآخر يريد عكسها، لم نفكر يومًا أن نسمع بعضًا، وعندما سمعنا كان ذلك بين جدران الزنزانة كل منا ذهب إلى أمنيته بوسيلته كما حدث في اللعبة.

فرنسا سرق ما أتى به أنس وتعامل ببعض البلطجة، ووائل استغل لياقته، والشيخ (مجدي) حاول ثم عاد لتحفظه وحكمته ولو شارك «شرقاوي» لكان قد تعنف ليحصل على الوسادات، هذا ما حدث معنا في الواقع، حذرونا ألا يحدث بعضنا بعضًا حيث أن الأيدلوجيات مختلفة، وهذا ما فعلته معكم عندما طلبت ألا يقول أحد لآخر المطلب الذي وكل به، لنكتشف في النهاية أن أهدافنا واحدة وهي أن نصنع دائرة بالوسادات، كذلك الأمر أهدافنا واحدة أننا نريد العدل والحرية والمساواة والمشاركة ونريد دولة تحترمنا لم تكن مطالبنا أبدًا متضادة..

أعاق كل منا الآخر ظنًّا منه أنه يعرقله فى الوصول لغايته بينما الغايات واحدة.

ثم أردف..

ـ لابد أن نخرج من هنا لابد أن نتناقش في الخارج، لابد أن نسمع الآخر، نسمع منه لا عنه، لعل المطالب واحدة والأهداف واحدة والأمنيات واحدة.

من يجد سبيلا للخروج فليخرج، السجن ليس البطولة، البطولة أن تصل الأفكار.

(مجدي)...

ـ والأفكار لن تصل إن خرجت ولن يتركوك، الخروج الوحيد من هنا لن يكون إلا بالتنازل، وهذا مدخل اليأس إليكم.



(١١)

«إن لم نستطع الفرار فليست من الحكمة
أن نموت دون ضجيج»



ستة أشهر تمر، لا جديد فيها سوى زيارة جديدة للعقاب حملت رسائل سلبية من الخارج إلى الداخل أن ذكرهم ما عاد يتردد بين الناس، والحقوقيون كفُّوا عن ذكرهم، ولا ثورة عارمة قد تخرجهم حتى تلك المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي قد قلَّت إلا من القليل من أهالى نزلاء العقاب.

«نسيبة» مازالت تدون على هاشتاج #العلاج ـ حق، خاصة بعد التدهور الأخير لوالدها (مجدي عاطف).

مارينا...

ـ تندد بتجديد الحبس على زوجها دون محاكمة على هاشتاج# لا ـ للحبس ـ الاحتياطي.

زيارة ورؤية أخيرة يتوقعها «شرقاوي» لزوجته وابنته..

زيارة حملت (لوائل) طريقه لخروجه مما هو فيه رغم معاناته إلا أن الطريقة أصعب من أن يقبلها، زيارة أخيرة زادت من خوف «نسيبة» على والدها الذي تدهورت حالته.

ستة أشهر مرَّت ببرودة جو وطول انتظار ويأس وألم ووجع وحيرة، كان من ليل ذلك اليوم الذي شهد الزيارة اجتماع معتاد بين الرفقاء كل يتحدث عن مستجداته وما أتى له من الخارج من بشريات أو رسائل سلبية

أو تقدم في أمر من محاميه أو أحد من عائلته.

استغلَّ (وائل) الفرصة كي يتحدث عما بداخله: ـ

ـ والدي اليوم عرض عليَّ أنه سيخاطب السفارة الأمريكية حيث إنني أحمل جنسية أخرى وذلك الأمر سيفرق كثيرًا في أمر خروجي، لكن الأمر صعب عليَّ وسيستغل ضدي أنني أستقوي بالخارج، وفي نفسي أنا أريد الخروج ما عدت أتحمل لكن لا أريد لنفسي النبذ من العامة في هذا البلد.

رد (فؤاد)...

ـ من وجهة نظري هي طريقة لا ضير فيها للخروج من هنا إن كان على الناس فهم يعتبروننا أعداء للوطن، وهل وجودك هنا يعليك عندهم؟ فكِّر في نفسك أولًا أنت من تعاني، دعْ كل من يزايد عليك، لقد خرجت من أجل الناس وقذفت بالطوب، أرسل لوالدك واجعله يتحرك لعل واحدًا منا يخرج ويتحدث عنا وعن معاناتنا هنا، وجودنا لا يصبُّ في مصلحة معتقداتنا ولا مصلحتنا.

للأمانة أيضًا أنا طالبت من زوجتي أن تحث «نسيبة» ابنة الأستاذ «مجدي» أن تطلب العفو الصحي لوالدها لكبر سنه وحتى يتعالج.

هنا نهض (مجدي)..

ـ لماذا ذلك أنا لو أردت هذه المساومة لكان في أول العمر، أنا لن أطلب عفوًا منهم ولن أخضع للموت، هنا أشرف لي، ولا أظن نسيبة ستفعل.

ـ فؤاد..

ـ يا أستاذ (مجدي) لتكن آخر عمرك مكرَّمًا في بيتك، هذه التضحية

لا تصب في مصلحة معتقدك يكفي كل هذه السنون لا أرى في ذلك أي انتقاص من نضالك، الحرب مراوغة وليس من الحكمة أن نموت هنا دون ضجيج إن لم نستطع الفرار.

سكت (مجدي) لبرهة ثم تدارك نفسه سريعًا قبل أن يخور الكلام من عزيمته:

ـ لا أنا قيادي يتعلم خلفي الكثير لن آتي بعد ذلك العمر وأخضع..

تدخل فرنسا بتلقائية..

ـ لا يوجد أي ورقة أقوم بعملها يا أستاذ فؤاد..

بدعابة بسيطه لا يا فرنسا النبطشي لا يخرج أبدًا..

فمن سيحكم من يسجن بعدنا؟ أنت كرؤساء بلادنا، تتغير الأجيال وهم ثابتون.

ارتاح (وائل) قليلا لحديث (فؤاد) ووافق رغبة عنده في أن يجد تبريرًا مقنعًا كي يرتاح لما سيقدم عليه والده.

* * *

«نعم أنا أرسلت طلب عفو عن أبي دون علمه أقول لكل المزايدين لن أجد أي سبيل لخروج والدي ولن أسلكه، أنا أريد والدي أريد أن يكون بجواري، الباقي من عمره أريده بيننا وحسب بأي طريقة، كلٌّ من يزايد عليَّ وأنني بعت القضية، أقول وهل القضية فقط على حياة أبي وحرماني منه، أبي ضحَّى بكل عمره وأنا قاسيت كثيرًا، لا تتحدثوا بلساني ولا عيني ولم تذوقوا ما ذقت.

هل موت أبي داخل حبسه دون علاج هو انتصار للقضية؟ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»....

هكذا كان منشور نسيبة مجدي على موقع التواصل الاجتماعي.

على جانب آخر كتب آخرون عن المعتقل الذي يلوح بجنسيته الأمريكية ويستقوي بالخارج على بلده..

عاد ذكر «وائل» الذي تغافلت عنه عمدًا كلُّ الصحف ونسي أيضًا على مواقع التواصل الاجتماعي ـ لم يذكره أحد في معاناته، ولم يذكر أحدٌ أنه صاحب فكرة نبيلة وأغراض سامية.

فقط جاء ذكره عندما استدعى الأمر المزايدة على وطنيته وحبه للبلد ـ ذلك الحب الذي أسكنه السجن لم يتحدث عنه أحد، كل ما أثار حفيظتهم كيف يحاول أن يخرج من ذلك السجن الوطني، وكأن استمرار قيده هو ما يحفظ عليه وطنيته.

غير تلك المنشورات لم يكن لهم ذكر، فالبلاد تمرُّ بما هو أكبر، انتظار المباراة المؤهلة لمونديال كرة القدم، والبرامج تتحدث عن هذا الحلم الذي سمي بحلم الجيل، وأغلب المانشتات الرئيسية للصحف تتحدث أيضًا عن الحلم نفسه، لا حدث يعلو فوق صوت المونديال الآن في البلاد، حتي أن بعض الفقراء ظنوا أن مشاكلهم ستحل بمجرد التأهل..

الهتاف يحيط بالعقاب من كل اتجاه، الصوت نفذ إلى الزنازين وإلى مسامع النزلاء، هل هذا ما انتظروه طويلًا جموع الثائرين تحررهم أم ماذا؟ لا أحد يعلم مصدر الهتاف ولا أسبابه..

فالعقاب في قلب الصحراء لا يحيط به مواقع سكنية ولا تجمعات بشرية، ما الأمر ماذا يحدث بالخارج؟

ظلَّ الأمر كذلك حتى عاد (فرنسا) من الخارج متهلل الوجه يهنئنا على التأهل للمونديال..

قد عرف ذلك أثنا اجتماع النبطشية مع مأمور السجن والهتاف الخارجي هو للجماهير المحتشدة الخارجة من الاستاد التابع للجيش في هذه المنطقة.

فبالرغم من تباعد المسافة إلا أن كثرة عدد الجماهير وعدم وجود أية مبانٍ بجوار السجن أدى إلى وصول الصوت للنزلاء داخل سجونهم.

ليعلموا بعد ذلك أن تلك الحشود قد أتت للمنتخب الوطني وليس لمن هم رهن الاعتقال..

هنا تحدث «شرقاوي» غاضبًا:

ـ لن يكون نصر طالما لا تجتمع الحشود إلا على اللعب..

رد (فؤاد):

دعهم، فالكرة هي الأمر الوحيد الذي يشعرهم بتواجدهم، فلا تجد مثلًا اضطهادًا من الأغلبية الأهلوية على الزمالكوية أن يتركوا ناديهم ويعتنقوا تشجيع الأهلي مثلًا.

أكبر حزبين في بلدنا الأهلي والزمالك، هما الانتماء الوحيد الذي تستطيع البوح به وترفع رايته وتهتف باسمه دون أن تخاف الاعتقال.

الكرة الأمر الوحيد أيضًا الذي يجعلنا نرفع أعلام بلدنا خفاقة، شعبنا يحتاج لأي فرحه يتلكك الفرحة ويسعي إليها.

لذلك.. نحن أكثر الخاسرين من وجودنا هنا، المباراة مثلا كفيلة أن تنسيهم كل شعاراتنا، تنسيهم الغلاء والوباء والتأخر في التعليم، في حقيقة الأمر نحن في رفاهية فكرية وسط مجتمع ما زال يبحث عن رغيف الخبز ننتظر أن يكون له أيديلوجية ورأي وتوجه.

* * *

شعور باليتم يخيم على أهل (ثلاثين) أول ليل يمر دون أن يكون بجوارهم، دون أن يشد من عضدهم، ركنه خالٍ، وسادته وحيدة، مكانه محجوز بفرشه يفتقدون أزيز صوته بالقرآن كل ليلة، أصبحت الكلمات التي كان يواريها بجسده أكثر وضوحًا تلتهم أفكارهم، تستضعفهم طول هذه الليلة، اليأس فرد عضلاته واستعرض فقد غابت ضماضة كلماته، فراغ في ركنه وفراغ أكبر في دواخلهم، وجهه اعتادوه طيلة عشرة أشهر، يستيقظون عليه ليجدوه أول من استفاق، ما زاد من حدة شعورهم انقطاع أخباره منذ أن نقل في منتصف الليل إلى مستشفى السجن إثر تدهور شديد ومفاجئ.

آخر نظراته في وجوههم لا تبرح من مخيلتهم، أهذه نظرة الوداع أم أن في العمر بقية من سجن، وبقية من جدال، وبقية من مناظرات، كانت آخر كلماته إليهم لعله الإفراج الأكبر فلا أعود إلى هنا مرة أخرى، فاذكروني بكل خير، وإن رحلت سأذكركم عند ربي هو الأرحم بكم.

أيام تمر على هذه الحالة لا خبر يطمئن ولا نهاية مأساوية متوقعة تحدث..

مجيء لفرنسا من الخارج نبأهم بما حدث دون أن يتفوه بكلمة، فقط تبدلت ابتسامته المعهودة التي كان يأتي بها من بعد استلام التعيين وعودته من التريض، تبدلت تلك الفكاهة المعهودة بدمعتين على عينيه قد يكونان هما أصدق ما في حياته كلها.

ما أقساها من ليلة.. رمزًا لرجل كان هنا رحل وترك صوته، رحل وترك وسادته، رحل وترك ركنه، رحل وترك موقعه من جلسات الزنزانة الروتينية.

كان الخبر عليهم مثل عبث داخل جرح حي، كلماته تمر على خاطرهم، منظاره الطبي فقط يحل محله في فرشه، ترى ماذا كان يرى به حتى يتحمل كل هذه السنوات من السجن، دموعهم ليست دمعة على رفيق قد ولى، إنما سند قد أنقض، صبر كان بينهم ونفذ.

قلوبهم تبكي راحلهم وعقولهم تفكر، يخشون أن يكون خروجهم مثل خروجه جثامين على الأعناق، وحدها العشرة أذابت كل الاختلافات وكل الضغينة، علت مشاركتهم رغيف الخبز على اختلافهم فى الرؤى، وعلا الإنسان بداخلهم عن هويته.

(أتى العفو الإلهي أولًا)

......

«تحقق النصر الكبير الذي تمنيتموه، مات أبي في محبسه، هكذا أصبح على العهد بينكم كنت أشتهي حضنه الذي حرمتني منه تلك الألواح الزجاجية، أبي عاش مناضلًا ومات كالنخل عاليًا شامخًا».

هذا كان نعي نسيبة لوالدها على موقع التواصل الاجتماعي...

.....

«عاش على العداء ومات بلا بكاء».

هكذا نعت أكبر الجرائد الرسمية موت (مجدي) على صدر صفحتها الأولى..



(١٢)

«الوطنية من الفطرة والفطرة لا تمنح
وما لا يمنح لا يسلب»



اقتربت السنة الأولى على التمام، يمكنهم الآن العد والحساب، هكذا نبأهم رفيقهم الراحل أن وحدة الوقت هنا السنوات، ينتظر «شرقاوي» موعده الذي طال انتظاره كانت سريعة جدًّا المحاكمات، لكن التنفيذ متراخٍ على ما يبدو إن في ذلك نوعًا آخر من العذاب ما أشده من عذاب، أن تنتظرَ الأجل مع كل رجل تقترب وتشعر بقرعها، ما أشده من عذاب أن تتهيأ كل صباح لمجيئهما بشاربهما المميز ولا يأتيان.

هل ينتظران يومًا على غير تهيئة فيه، فيأتيا على غفلة أم ينتظران نومه بطمأنينة فيأتيا بفزعها، كانت تلك أحاديث نفس «شرقاوي» المتأهبة.

اجتماع جديد بحكي أغلبه باهت، لكنه قتل للوقت، تحدث (وائل) إلى رفاقه عن مساومة الأمن له للخروج وهو التنازل عن الجنسية المصرية: ـ

الأمر يزداد صعوبة، كنت أظن أن تدخل السفارة الأمريكية كأحد رعاياها هو كل الصعوبات ـ لكن أتى الأصعب، أن أتنازل عن جنسيتي، عن نفسي، عن أصلي، مقابل حريتي، ما أشدها من مقايضة أتظاهر كي أتمنى لبلدي خيرًا أكبر وتطورًا أكبر، ونجاحًا أكبر، تكون النتيجة أن أتنازل عن محل بلدي، كيف لمن يبحث عن الوطن أن يتنازل عن كونه مواطنًا...

«شرقاوي»..

ـ هون عليك... الجنسية فعل سياسي والوطنية أمر آخر، تلك الورقة

التي سيسلبونها مجرد ورقة، الوطنية من الفطرة، والفطرة لا تمنح، وما لا يمنح لا يسلب.

«فؤاد»..

ـ فهمك في قمة الوعي، نعم كما قال «شرقاوي» الجنسية فعل سياسي، وأضيف أن الوطن أيضًا حيث أمنك سلامتك تعليمك صحتك نجاحك وليس حيث ميلادك أو أصلك..

ستظل ابن هذا البلد، ذلك أمر لن يستطيع أن ينفيه أحد، سيأتي يوم ونحكي فيه عن تلك الضغوطات، اخرج يا (وائل) أنت مريض، لا تجعل المرض يتمكن منك أكثر، يكفي تلك السنة، لن تفرح بخروجك عاجزًا أو على نعش، اخرج واكتب عنا، اخرج واذكرنا عند الناس، نحتاج أيضًا لذلك الذكر...

* * *

العالم الأزرق قد اشتعل بالحدث تصدر هاشتاج #تنازل ـ عن جنسيته، القائمة الدولية...

جاء عليه الكثير من التعليقات...

ـ ليتك ما فعلت هل هذا الشيء يمكن التنازل عنه؟

وقال آخر:

ـ لا أتخيل أن يقبض على رجل في مسيرة من أجل وطنه، فيتنازل عن الجنسية حتى يخرج من السجن، وطنية زائفة كنت تحملها، لا أستغرب ذلك من مدعي الوطنية.

وقال آخر:

ـ هل الحرية أمر مُجدٍ دون وطن نمارس فيه حريتنا، لا أدري لعل ما تعرض له فوق الاحتمال..

وقال آخر:

ـ لا أستطيع أن أقيم فعلا ما لم أعش تفاصيله..

هكذا كانت بعض المنشورات على هذا الهاشتاج وذلك الحدث فور الإعلان عنه...

* * *

انفرط عقدهم.... تقلص عددهم.... زاد براح الزنزانة، وطاف الألم بالأنفس، مرَّ أسبوع كامل على تنازل (وائل) عن جنسيته، أصبح الوقت الطويل ينقسم على أربعة بدل الستة، فزاد حمل الأنفس من الشجن، وبدلة حمراء تهدد برحيل مفجع ذات صباح أو ليل.

يتحدث (أنس) إلى من يسمعه منهم أو إلى نفسه، لماذا كل المطالبين بالحرية يكون نصيبهم القيد والسجن؟ لماذا العبيد في براح المدن والأحرار بين جدران السجون؟ لماذا الاختيار بين التنازل أو القهر؟ هل الثبات على المبدأ أو الكرامة أشياء مثالية لا تقبل أن تكون على أرض الواقع؟

أين البلد من كل هذا؟ لماذا لا تتحدث؟ لماذا لا تقل أينا تريد؟ لماذا نحن دون البشر من اختارنا هذا الطريق؟ لماذا تلبسنا الفهم واعتنقتنا الأفكار لتصبح سبب شقوتنا لماذا؟

* * *

صباح جديد بدأ يتنفس، مستلقية الأبدان ومغلقة العيون من جراء سهر في حفرة الألم، إلا هو عيناه مغلقتان على حذر، وقلبه رهن شعور، وانتباهة جسده متعلقة بدبيب بسيط يسمعه، نفسه لا تطاوعه ذلك الصباح للاسترخاء، يشعر بحركات بعيدة على استحياء وجوٍّ ملبد بقادم متسلل، قرَّر ألا يضيع لحظات قد تكون الأخيرة له، فهمَّ إلى رفاقه المتعبين من الهموم المسترخين في هدوء نادر حدوثه، اضطر آسفًا أن يقطع عليهم راحتهم التي يتعذر حضورها دائمًا، لكنها الرمقات الأخيرة من رؤية الأحبة، أيقظهم على خجل منه، وتردد ليكونوا بجواره في يوم يعتقد أنه إخلاء سبيله من الحياة...

نهض (فؤاد) على وقع دمعة قد ذرفت من عين رفيقه قد طرقت على خده بعدما فشلت يد صاحبه المترددة أن توقفه، نهض دون أن يمحها علها ذكراه الأخير من رفيق الألم.

ثم توجه «شرقاوي» بعد ذلك إلى (أنس) فغلبته دموعه أكثر فلم يستطع، فقام الآخر من أزيز صدره الذي اقشعرت له جدران الزنزانة.

على وقع حرارة ودعاهما ونار الفراق الناشبة في قلوبهم قام رابعهم ليكتوي من لهيب الوداع ورؤية من يستعد إلى الرحيل الأبدي..

وقف بينهم «شرقاوي»: ـ

اليوم يومي يا رفاق ومعذرة أن قطعت عليكم نومتكم، لكن السفر بعيد، أردت أن أحسن الختام، وأحتوي انتفاضة قلبي بين أجسادكم، الموقف أشد من استطاعتي، إن للموت لهيبة، ولأعواد المشانق لشدة تفوق شدتي، نبئوا أهالى الشهداء أنني لم أقتلهم، نبئوهم أنني المقتول منذ سنين، يعلم الله أنني صدقتكم القول، هذه قصتي.

ردوا عني غيبتي، أنا لم أعش يومًا سعيدًا، لا أريد سوى ذكرى سعيدة، وإن كانت منكم فقط هل لكم من شيء عندي، أنا أيضًا ذاهب لمكان آخر.

رد (فؤاد) بصوت ينتحب..

ـ أنا يا صديقي، اذكرني عند ربك، قل له إنني أبحث عنه في الجمال والطبيعة، اطلب لي منه يقينًا أو دليلا يرشدني إليه، قل له إني لا أنكره لكنني تعثرت في أن أصل إليه، شكي فيه لا يقطعه يقين، ويقيني فيه مشكوك، أفكاري لا تقبل احتمالات، أريد أن أذهب إليه بكل الدلائل مطمئنًا لا عن طريق قصص يتناقلها الناس عنه، ترجاه أن يتدخل بقوته، فالوضع أصبح أكبر من قوتنا في تغييره.

اقترب قرع الأقدام... بلغت القلوب الحناجر ـ فتحت الزنزانة أسلمهم نفسه قبل أن يستدعوه، وبصره لا ينفك عن أصحابه، ونفسه تردِّد «لا قيد لروحي بعد الآن».

تمت

زنزانة 30

يدّعي الكل وصلا بها وهي لم تعلن عن ميلها قط. القاتل كان مدافعًا عنها والمقتول كان من أجلها، وآخرون يهتفون تموت تموت لحياتها، وهي صامتة تزهد أن تقول لهم أنها لا تموت. هي باقية بأرواحهم التي تسري في شوارعها وتؤنس وحدة دروبها، هي باقية بازدحامهم في قلب ميادينها وحشودهم في طوابيرها المختلفة. تعتمد على ذكائهم أن يفقهوا أن الموت ليس من نهاياتها ولم يكتب عليها، وأن جنتهم الممهدة لها لا تسعدها.



علاء أحمد

روائي وشاعر من مواليد الإسكندرية عام 1985. يعمل مسئول الثقافة العامة بقصر ثقافة الشاطبي بالاسكندرية.. صدر له ديوان "لابس وش" عام 2014، ثم رواية "HIV" عام 2015، ورواية "عزلة" عام 2016، ورواية "بتول" عام 2017.

تصميم الغلاف: كريم آدم



